الفصل الخامس والسبعون

الحنفاء

وقد أشار القرآن الكريم الى جماعة من العرب لم تعبد الأصنام ، ولم تكن من اليهود ولا النصارى ، وانما اعتقدت بوجود إلـه واحد عبدته[1]. وقد ذكر المفسرون وأهل الأخبار أسماء جماعة من هؤلاء ، غير ان ما ذكروه عنهم غامض لا يشرح عقائدهم ، ولا يوضح رأيهم في الدين ، فلم يذكروا عقيدتهم في التوحيد ، ولا كيفية تصورهم لخالق الكون .

وقد عرف هؤلاء بالحنفاء وبالأحناف ، ونعتوا بأنهم كانوا على دين ابراهيم ، ولم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، ولم يشركوا بربهم أحداً . سفهوا عبادة الأصنام، وسفهوا رأي القائلين بها[2] .

---

١ « وقالوا : كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ٠ قل : بل ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » ، البقرة ، رقم ٢ ، الآية ١٢٥ ، تفسير الطبري (١/٤٠٤) ، روح المعاني (١/٣٥٢) ، تفسير المنار (١/٢٧٩ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢/١٩٦)، اللسان (١٠/٤٠٢ وما بعدها) ، النهاية في غريب الحديث، لابن الاثير (١/٢٦٥) الطبرسي ، مجمع البيان (١/٤٦٧) ، (١/٢١٥ وما بعدها) ، (طبعة طهران) ، تفسير القرطبي ، الجامع (٢/١٢٨) ، الطبري ، جامع البيان (١١/١٧٧) ، (٢١/٤٠) ، البيضاوي (١/١٥٩ ، ٢١٥) ، تفسير القرطبي (١٠/١٩٨) ، الكشاف، للزمخشري (١/٢٣٦) ، اللسان (٩/٥٦) «صادر» ، تأريخ الخميس ، للدياربكري (٢/١٧٧) ، الكامل ، لابن الاثير (١/٢٤٤) ، تفسير القرطبي ، الجامع (١٠/١٩٨) ، (حنيفا) ، سورة النحل ، رقم ١٦ ، الآية ١٢٠ ٠

٢ النهاية (١/٢٩٩) ٠

وقد أشير الى (الحنيفية) و (الحنفاء) في كتب الحديث[1] . وقد بحث عنها شرّاح هذه الكتب . ومما نسب اليه حديث : « لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة »[2] . وحديث : « بعثتُ بالحنيفية السمحة السهلة »[3]. وحديث « أحب الأديان الى الله تعالى الحنيفية السمحة »[4] .

ويذكر أهل الأخبار أن الجاهليين جميعاً كانوا قبل عمرو بن لحي الخزاعيّ على دين ابراهيم . كانوا موحدين يعبدون الله جل جلاله وحده ، لا يشركون به ولا ينتقصونه . فلما جاء عمرو بن لحيّ ، أفسد العرب ، ونشر بينهم أضاليل عبادة الأصنام ، بما تعلمه من وثنيي بلاد الشأم حين زارهم ، وحل بينهم ، فكان داعية الوثنية عند العرب والمبشر بها ومضلّهم الأول . وهو على رأيهم موزّع الاصنام بين القبائل ، ومقسّمها عليها . فكان من دعوته تلك عبادة الاوثان ، الى أن جاء الاسلام فأعاد العرب الى سواء السبيل ، الى دين ابراهيم حنيفاً ، وما كان ابراهيم من المشركين[5] .

ولقد فشت دعوة عمرو بن لحي وانتشرت ، حتى دخل فيها أكثرهم ، والضلال سريع الانتشار ، وقلّ عدد من حافظ على دين ابراهيم والمراعي لأحكام دين التوحيد الحنيف : من اعتقاد بوجود إلٰه واحد أحد ، وطواف بالبيت ، وحج اليه ، وعمرة ، ووقوف على عرفة وهدي للبدن ، واهلال بالحج والعمرة ، وغير ذلك . فلم يبق منهم إلا عدد محدود في كل عصر الى زمن البعثة المحمدية[6].

ولسنا نملك ويا للأسف شيئاً من الجاهلية يعيننا في الوقوف على عقائد الأحناف ودينهم ، فليس في كتابات المسند ولا في الكتابات الجاهلية الأخرى ، بل ولا في كتب اليونان واللاتين شيء عن عقيدتهم وعن آرائهم،لذلك اقتصر علمنا بأحوالهم على ما جاء في المؤلفات الاسلامية وحدها ، والفضل في حفظ أخبارهم للقرآن

---

١ راجع ونسنك : المعجم المفهرست لالفاظ الحديث النبوي الشريف ، حيث تجد الاشارة الى تلك الاحاديث .

٢ مسند أحمد بن حنبل (١١٦/٤) ، (٣٣/٦) .

٣ اللسان (٥٦/٩ وما بعدها) .

٤ مجمع البيان ، للطبرسي (٢١٥/١ وما بعدها) ، « أحب الدين الي الحنيفية السمحة » ، الاصابة (٥١/١) ، (رقم ١١٤) .

٥ اللسان (٤٠٣/١٠) ، بلوغ الارب (١٩٥/٢) .

٦ بلوغ الارب (١٩٦/٢) .

الكريم ، فلولا اشارته اليهم وذكره لهم ، لما اهتم المفسرون وأصحاب الأخبار بجمع ما كان عالقاً في ذهن الناس عنهم . وللحديث وكتب السير والأدب فضل في جمع أخبارهم يجب ألا ينسى كذلك .

وللعلماء الاسلاميين آراء وتفسيرات في أصل لفظة (حنيف) وحنفاء وأحناف وفي معانيها . فهم يقولون ان الأصل (حنف) ، وحنف بمعنى مال . وحنف القدمين ميل كل واحدة منها نحو الأخرى . والحَنَفُ هو ميل عن الضلال الى الاستقامة ، والحنف ميل عن الاستقامة الى الضلال . والحنيف هو المائل . ومن هذا المعنى أخذ الحنف . وأما الحنيف ، فالذي يميل الى الحق،وقيل الذي يستقبل البيت الحرام ، أو الحاج أو من يختتن،والحنيف من أسلم في أمر الله فلم يلتوِ في شيء ، والحنيف المستقيم الذي لا يلتوِ في شيء[1] .

وقد وردت لفظة (حنيفاً) في عشر مواضع من القرآن الكريم[2] . ووردت لفظة (حنفاء) في موضعين منه[3] . وبعض الآيات التي وردت فيها آيات مكية ، وبعضها آيات مدنية . وقد نص في بعض منها على ابراهيم ، وهو على الحنيفية ، ولم ينص في مواضع منها على اسمه . وقد وردت لفظة (حنفاء) في سورتين فقط . هما : سورة الحج وسورة البينة ، وهما من السور المدنية .

وذكر بعض أهل الأخبار ان الحنيف عند أهل الجاهلية من اختتن وحج البيت فكل من اختتن وحج البيت هو حنيف[4] . وقد رأى الطبري ان ذلك لا يكفي ،

---

١ المفردات ، للاصفهاني (ص ١٣٣) ، اللسان (١٠/٤٤) ، (٩/٥٦ وما بعدها) « صادر » ، تاج العروس (٦/٧٧ وما بعدها) ، النهاية في غريب الحديث والاثر ، لابن الاثير (١٠/٢٦٥) ، تفسير الطبري (١/٢٥٨ وما بعدها) ، القاموس المحيط ، للفيروزآبادي (٣/١٣٠) ، تفسير الطبري (١/٥٦٣) ، «١٩٥٤» ، (٣/١٠٥) « دار المعارف » ، الملل والنحل ، (٢/٥٢) ، الاغاني (٣/١١٣ وما بعدها) « دار المعرفة بيروت ١٩٥٥ م » ، روح المعاني للالوسي (٣/١٧٣ وما بعدها) ، تفسير الخازن (١/٩٨) .

٢ البقرة ، رقم ٢ الاية ١٣٥ ، آل عمران ، ٣ الآية ٦٧ ، ٩٥ ، النساء ، الرقم ٤ ، الاية ١٢٥ ، الانعام ٦ ، الاية ٧٩ ، ١٦١ يونس ، الرقم ١٠ ، الآية ١٠٥ ، النحل ، ١٦ ، الاية ١٢٠ ، الروم ، الاية ٣٠ .

٣ الحج ، الاية ٣١ ، البينة ، الاية ٥ .

٤ اللسان (١٠/٤٠٢ وما بعدها) ، الكشاف (١/١٧٨ ، ٢٣٦ ، ٤٠٧) ، الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن (١/٤٦٧ وما بعدها) ، (٣/١٠٩ وما بعدها) ، تفسير الفخر الرازي (١٣/٥٧ وما بعدها) ، (١٤/١٠ وما بعدها) ، (١٧/١٧١ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٣/١٠٤ وما بعدها) .

بل لا بد من الاستقامة على ملة ابراهيم واتباعه عليها[1]. والذين يذكرون أن الحنيف هو من اختتن وحج البيت ، يذكرون أن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين ابراهيم غير الختان وحج البيت ، ولهذا فكل من اختتن وحج البيت ، قيل له حنيف . وقد أضاف بعضهم اعتزال الأصنام والإغتسال من الجنابة الى ما ذكرت ، وجعلوا ذلك من أهم العلامات الفارقة التي ميزت الحنفاء عن المشركين[2]، لأن الحنيفية على حد قولهم لو كانت حج البيت والاختتان لوجب أن يكون الذين كانوا يحجّون ويختتنون في الجاهلية من أهل الشرك حنفاء،وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفاً بقوله : « ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين »[3].

وينسب أهل الأخبار الى الأحناف بالإضافة الى ما ذكرت ، امتناعهم عن أكل ذبائح الأوثان وكل ما أهل الى غير الله . فقد ذكروا عن كل واحد من الأحناف أنه كان قد امتنع عن أكل الذبائح التي تذبح للأوثان والأصنام ، لأنها ذبحت لغير الله . كما نسبوا اليهم تحريم الخمر على أنفسهم ، والنظر والتأمل في خلق الله ، ونسبوا اليهم أداء شعائر الحج وغير ذلك[4].

وقد لخص (الفخر الرازي) و (الطبرسي) ، آراء العلماء في (الحنيفية) واجملاها في تفسيرهما للآية : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة ابراهيم حنيفاً ، وما كنت من المشركين » . فقالا : « وفي الحنيفية أربعة أقوال : احدها انها حج البيت ، عن ابن عباس والحسن ومجاهد . وثانيها انها اتباع الحق ، عن مجاهد ، وثالثها انها اتباع ابراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماماً للناس بعده من الحج والختان وغير ذلك من شرائع الاسلام ،

---

١ تفسير الطبري (٣/١٠٥ وما بعدها) ، (٣/٣٠٦) ، (٥/٢٩٧) ، (٧/٢٥١) ، تفسير القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٢/١٢٨) .

٢ اللسان (٩/٥٦) « صادر » ، القاموس (٣/١٣٠) ، تاج العروس (٦/٧٧ وما بعدها) ، (حنف) .

٣ الطبري ، جامع البيان (١/٥٦٤ وما بعدها) .

٤ الاصنام (٦) « ١٩١٤ م » ، القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ، (٤/١٠٩) « ١٩٣٧ م » « مطبعة دار الكتب المصرية » ، ابن خلدون (القسم الاول من المجلد الثاني) (ص ٧٠٧ وما بعدها) « بيروت ١٩٥٦ م » الخازن ، لباب التاويل في معاني التنزيل (١/٢٣٨ وما بعدها ، ٢٥١) ، تفسير الرازي (٨/١٥٠ وما بعدها) .

والرابع انها الاخلاص لله وحده والاقرار بالربوبية والإذعان للعبودية »[1] .

ترى مما تقدم ، وسترى فيما بعد ان أهل الأخبار لم يكونوا على بينة تامة وعلم واضح بأحوال الحنيفية وبآرائها وقواعد أحكامها وأصولها ، وانهم خلطوا في بعض الأحيان فيما بينها وبين الرهبنة ، ولا سيما رهبنة النصرانية . فأدخلوا فيها من يجب اخراجهم عنها ، لأنهم كانوا نصارى على ما يذكره نفس أهل الأخبار في أثناء تحدثهم عنهم ، ومن هؤلاء : قيس بن ساعدة الأيادي وورقة بن نوفل ، وعثمان ابن الحويرث ، فقد نصوا نصاً صريحاً على انهم كانوا من العرب المتنصرة ، ثم نجدهم مع ذلك يدخلونهم في جملة الأحناف .

وللمستشرقين بحوث في أصلها ومعناها وفي ورودها عند العرب قبل الاسلام . ومنهم من يرى ان اللفظة من أصل إرمي ، وقد كانت معروفة عند النصارى ، وأخذها الجاهليون منهم ، وأطلقت على القائلين بالتوحيد من العرب ، على أولئك الذين ظهروا في اليمن خاصة ونادوا بالتوحيد وعبادة الرحمان . وهي ديانة توحيد ظهرت بتأثير اليهودية والنصرانية ، غير ان أصحابها لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وانما كانوا فرقة مستقلة تأثرت بآراء الديانتين[2] .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى ان اللفظة من أصل عبراني ، هو : (تحينوت) tchinoth ، أو من (حنف) Hnêf ، ومعناه التحنث في العربية ، وذلك لما لهذه اللفظة من صلة بالزهد والزهّاد[3] . وقال (نولدكه) انها من أصل عربي هو (تحنف) ، على وزن تبرر ، وهي من الكلمات التي لها معانٍ دينية . ويلاحظ ان السريان يطلقون لفظة (حنفه) Hanfa على الصابئة[4]. وقد وردت لفظة (حنف) في النصوص العربية الجنوبية ، وردت بمعنى (صبأ) ، أي مال وتأثر بشيء ما[5] .

---

١ مجمع البيان (٢١٥/١ وما بعدها) ، التفسير الكبير ، للفخر الرازي (٨٩/٤ وما بعدها) .

٢ Ency., II, p. 259.

٣ Abraham I. Katsh., Judaism in Islam, New York, 1954, p. 108, f., J.A. Montgomery, Ascetic Strains in early Judaism, in, JBL., Vol., LI, (1932), pp. 183, Tar Andrae, Der ursprung der Islam und das Christentum, uppala, 1926, p. 40, Charles Lyall, The Ward Hanif and Muslim, in JRAS, 1903, p. 772, Sprenger, Das Leben, Bd. I, S. 45. ff.

٤ Ency., II, 259, Barhebraeus, Chronic., p. 176.

٥ Rhodokanakis, Stud., II, S. 40.

أي بالمعنى الذي فهمه علماء اللغة. فاللفظة اذن من الألفاظ المعروفة أيضاً عند العرب الجنوبيين .

عندي أن لفظة (حنيف) ، هي في الأصل بمعنى (صابىء) أي خارج عن ملة قوم ، تارك لعبادتهم . ويؤيد رأيي هذا ما ذهب اليه علماء اللغة ، من أنها من الميل عن الشيء وتركه ، ومن ورودها بهذا المعنى في النصوص العربية الجنوبية . وبمعنى (الملحد) ، و (المنافق) ، و (الكافر) في لغة بني إرم، ومن اطلاق (المسعودي) و (ابن العبري) لهذه اللفظة على (الصابئة) . ومن ذهاب (المسعودي) الى أن اللفظة من الألفاظ السريانية المعربة . وقد اطلقت على (المنشقين) على عبادة قومهم الخارجين عليها ، كما أطلق أهل مكة على النبي وعلى أتباعه (الصابىء) و (الصباة) ، فصارت علماً على من تنكر لعبادة قومه ، وخرج على الأصنام . ولهذا نجد الإسلام يطلقها في بادىء الأمر على نابذي عبادة الأصنام ، وهم الذين دعاهم بأنهم على (دين ابراهيم) . ولما كان التنكر للأصنام هو عقيدة الإسلام لذلك صارت مدحاً لمن أطلق الجاهليون عليهم تلك اللفظة لا ذماً [1] .

وليست الصورة التي رسمها المفسرون وأهل الأخبار عن عقيدة الحنفاء واضحة، فهي صورة غامضة مطموسة في كثير من النواحي ، تخص الناحية الخلقية أكثر مما تخص الناحية الدينية . فليس فيها شيء عن عقيدتهم في الله ، وكيفية تصورهم وعبادتهم له ، وليس فيها شيء عن كتاب كانوا يتبعونه أو كتب كانوا يسيرون عليها . نعم ، إن نفراً منهم كما ذكر الرواة كانوا قد قرأوا الكتب ووقفوا عليها ، ولكن ما تلك الكتب التي قرأوها ، وما أسماؤها . وهل هي التوراة والانجيل ؟ ولكن أي توراة وإنجيل ؟ التوراة والانجيل التي كانت بين أيدي الناس أو غيرها ؟ فالذي يفهم من كلام الرواة أن الحنفاء كانوا يرون تحريفاً في الكتابين ، وأن هناك تبايناً قليلاً أو كثيراً بين الأصل الذي أوحاه الله وبين الذي كان بين أيدي الناس ، وأنهم لذلك مالوا عن اليهودية والنصرانية الى دين ابراهيم الحنيف ، فقرأوا كتبه وتعبدوا بعبادة ابراهيم . ولكن ما هي كتب ابراهيم وما هي عبادته ؟

---

١ راجع أيضا : Ency., II, p. 259.

وليس في امكاننا في الوقت الحاضر وضع حد صريح واضح لمفهوم الأحناف و (الدين الحنيف) عند الجاهليين ، لما ذكرته من عدم وجود موارد واضحة صريحة عن الأحناف ، ولعدم ورود أي شيء عنهم في نصوص جاهلية ، ولأن في الكثير من الذي يذكره المفسرون وأهل الأخبار عنهم غموض وإبهام أو صنعة وتكلف ، لذلك فليس أمامنا سوى الانصراف الى البحث عن جمع كل ما ورد عن الحنيفية في الشعر وفي النثر وتنقيته وغربلته لاستخراج المادة الصافيـة منه التي تفيدنا في الوقوف على تلك الحركة الدينية التي كانت بارزة عند المذكورين قبيل ظهور الاسلام . والوقوف عليها يفيدنا كثيراً ولا شك في فهم الاسلام الذي أثنى على الحنيفية وأرجعها الى ديانة ابراهيم ، وفي فهم اتجاهـات الأحناف ودعوتهم التي وجهوها الى قومهم في نبذ عبادة الأصنام والأحجار والمعبودات المادية الأخرى، والالتجاء الى عبادة إلـه أعلى لا يشبه المادة ، هو إلـه واحد لطيف خبير .

والحنفاء ، كما يفهم من روايات أهل الأخبار ، كانوا طرازاً من النسّاك ، نسكوا في الحيـاة الدنيا ، وانصرفوا الى التعبد للإلـه الواحد الأحـد إلـه ابراهيم واسماعيل،ساحوا في البلاد على نحو ما يفعله السياح الزهّاد بحثاً عن الدين الصحيح دين ابراهيم ، فوصل زيد بن عمرو بن نفيل الى الشأم والبلقاء ووقف على اليهودية والنصرانية ، فلم يرَ في الديانتين ما يريد[1] . ومنهم من أخذ على قومه هدايتهم بحثّهم على ترك عبادة الأصنام ، لذلك لاقوا منهم غشاً ونصباً شديـداً . ومنهم من كان يتأمل في هذا الكون،لذلك تجنب الناس واعتزلهم ، والتجأ الى الكهوف والمغاور البعيدة ابتعـاداً عن الناس للتأمل والتفكر ، وقد تجنبوا الخمرة والأعمال المنكرة ، وقول الفحش ، وساروا على مثل الاسلام ، وان عاشوا قبل الاسلام، لأن الإسلام دين ابراهيم .

والذي يفهم من القرآن الكريم ، هو ان الحنفاء هـم أولئك الذين رفضوا عبادة الأصنام ، فلم يكونوا من المشركين ، بل كانوا يدينون بالتوحيد الخالص، وهو فوق توحيد اليهود والنصارى ، فلم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، و « وما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانيـاً ، ولكن كان حنيفـاً مسلماً ، وما كان من

---

١ بلوغ الارب (٢٤٧/٢ وما بعدهـا) ، الطبرسي ، مجمع البيـان (١١٠/٣) (٢٥٢/٧) ، (١٠٧/١١) (١٣٧/١٤) .

المشركين »[1] ، وان قدوتهم في ذلك ابراهيم . ويلاحظ ان لفظة (مسلم) استعملت في مرادف ومعنى لفظة (الحنيف) ، وان ابراهيم هو أبو وأول المسلمين . وقد وصف الاسلام بأنه دين الله الحنيف ، والدين الحنيف ، وان الشريعة الاسلامية، هي الحنيفية السمحة السهلة ، وذلك تمييزاً لها عن الرهبانية المتعصبة[2] .

وقد عدّ بعض المستشرقين الحنفاء شيعة من شيع النصرانية ، وعدّوهم نصارى عرباً زهاداً كيّفوا النصرانية بعض التكييف ؛ وخلطوا فيها بعض تعاليم من غيرها. وقد استدلوا على ذلك بما ورد من تنصر بعضهم ، وبما ورد في بعض الأشعار الجاهلية من مواضع يفهم منها على تفسيرهم ان المراد بهم شيعة من شيع النصرانية[3]. غير ان القرآن الكريم قد نص نصاً صريحاً على ان الحنفاء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، وانهم ينتمون في عقيدتهم الى ابراهيم . ثم إن الأخباريين وإن أدخلوا في الأحناف أناساً نصوا على انهم كانوا نصارى ، إلا انهم نصوا في الوقت نفسه نصاً صريحاً على ان البقية الباقية ، كانت واقفة،لم تدخل في يهودية ولا نصرانية ، إذ وجدت في كل ديانة من الديانتين أموراً جعلتها تتريث،فلم تدخل في احداهما، وبقيت مخلصة لسنّة ابراهيم ، لذلك فلا يمكن اعتبار الأحناف نصارى خلصاً ، أو شيعة من الشيع النصرانية .

وقد كان من الحنفاء نفر من النصارى ، أخلصوا لنصرانيتهم وماتوا عليها . فهؤلاء هم نصارى من غير شك ، ويجب اخراجهم من طائفة الحنفاء ، وادخالهم في النصارى ، مثل (بحيرا) الراهب ، وأمثاله ممن سأتحدث عنهم فيما بعد .

ويلاحظ أن جميع من حشرهم أهل الأخبار في الحنيفية ، كانوا من القارئين، الكاتبين . وكانوا يشترون الكتب ويراجعونها ويتسقطون أخبار أهل الآراء والمذاهب والديانات . ولبعض منهم — كما يروي أهل الأخبار — علم باللغات الأعجمية مثل السريانية والعبرانية ، كما كان لهم علم ووقوف على تيارات الفكر في ذلك الوقت . وقد أضافوا الى علمهم الذي أخذوه من الكتب ، علماً حصلوا عليه من

---

١ آل عمران ، الآية ٦٧ وما بعدها ، البقرة ، الآية ٣٥ ، آل عمران ، الآية ٩٥ ، النساء ، الآية ١٢٤ ، الانعام ، الاية ٧٩ ، ١٦٢ ، يونس ١٠٥ .

٢ ابن سعد (١/١٢٨) ، قال عبد الله بن أنيس :
فقلت له خذها بضربة ماجد حنيف على دين النبي محمد

٣ Reste, S. 238, J.A. Montgomry, Ascetic Strains in Early Judaism, JBL., Vol., LI, 1932, p. 183, Abraham J. Katsch, Judaism in Islam, p. 108.

أسفارهم الى الخارج مثل العراق وبلاد الشأم ومن اتصالهم بالرهبان وبرجال الكنائس واليهـــود . فهم بالنسبة لذلك الوقت الطبقة المثقفة من الجاهليين نادت بالاصلاح وبرفع مستوى العقل وبنبذ الأساطير والخرافات وبتحرير العقل من سيطرة العادات والتقاليد فيه ، وذلك بالدراسات والتأمل وبقراءة الكتب وبالرجوع الى دين الفطرة، الذي لا يقر عبادة الشرك ولا عبادة الناس .

لذلك نستطيع أن نقول عن هؤلاء إنهم كانوا أناساً من النوع الذي نطلق عليهم كلمة (مصلحين) في الوقت الحاضر . من هذا الطراز الذي يريد اصلاح الأوضاع ورفع مستوى العقل . فهم جماعة ضد الأوضاع الاجتماعية السائدة في أيامهم . لأنها في نظرهم أوضاع مؤخرة تمنع الإنسان من التقدم ومن ادراك الواقع . وقد رأت أن العقل لا يقر التقرب الى أحجـــار والى التبرك بها والذبح لها ، لأنها حجارة لا تعي ولا تفهم وليس في إمكانها أن تسمع أو تجيب لذلك نفرت منها . ومنهم من آمن بدين كالنصرانية ، ولكنه لم يكن على نصرانية قومه ، لأن عقله لا يقر التقرب الى المادة مثل الصليب والصور والتماثيل ، ومنهم من أبعدته مثل هـــذه العبادة عن النصرانية ، فصيرته حائراً في أمره من الديانات ، يعتقد بإلـه ، ولكنه لم يستقر على دين . عائب على قومه من المشركين ما هم عليـــه من جهل ومن عبادة أحجار ومن كل تقرب اليها .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نفر ذكروا انهم كرهوا عبـادة الأوثان وسخفوا أحلام المتعبدين لها ، إذ وجدوا ان من الحمق التقرب الى حجـــر لا يضر ولا ينفع ، وهو جماد ، فلما سمع بعضهم بالاسلام أسلموا . ولكنهـم لم يدخلوهم في عداد الأحناف . وقد رأينا ان من أهل الأخبار من جعل (مسيلمة) يدعو الى عبادة (الرحمن) قبل مبعث النبي . وقد ذكروا ان « عمرو بن عبسة بن عامر بن خالد » السلمي ، كان قد رغب عن آلهة قومه في الجاهلية ، رأى انها باطلة ، وان الناس في ضلال إذ يعبدون الحجارة ، والحجارة لا تضر ولا تنفع ، فكان حائراً ، حتى اهتدى إلى الاسلام[1] .

وليس في أيدينا اليوم مورد يفيد بوجود تكتل وتنظيم لمـــن أطلق الأخباريون

---

١ الاصابة (٣/٥ وما بعدها) ، رقم (٥٩٠٥) ، الاستيعاب (٢/٤٩١ وما بعدها) ، حاشية على الاصابة .

عليهم لفظة : (الحنفاء) ؛ تكتل وتنظيم مع مظاهر خارجية وداخلية تميزهم عن غيرهم من أهل الأديان . لذلك ، فنحن لا نستطيع أن نقول إن الحنيفية كانت فرقة تتبع ديناً بالمعنى المفهوم من الدين ، كدين اليهودية أو النصرانية ، لها أحكام وشريعة تستمد أحكامها من كتب مُنزلة مقدسة ومن وحي نزل من السماء ، على نحو ما نفهمه من الأديان السماوية . لذلك ، فأنا لا أستطيع إقرار رأي من ذهب الى انهم كانوا جماعة دينية منظمة ، كرأي المستشرق (شبرنكر) ، الذي ذهب الى هذا المذهب[1] .

وجلّ هؤلاء الأحناف ، هم من أسر معروفة ، وبيوت يظهر أنها كانت مرفهة أو فوق مستوى الوسط بالنسبة الى تلك الأيام ، ولهذا صار في امكانهم الحصول على ثقافة وعلى شراء الكتب ، وقد كانت غالية الثمن إذ ذاك ، لنيل العلم منها . كما صار في امكانهم الطواف في خارج جزيرة العرب لامتصاص المعرفة من البلاد المتقدمة بالنسبة الى تلك الأوقات ، مثل العراق وبلاد الشأم . وقد اتصلوا كما يزعم أهل الأخبار فعلاً برجال العلم والدين فيها ، وتحادثوا معهم وأخذوا الرأي منهم . ومن يدري فلعلهم قرأوا عليهم الكتب وفي جملتها كتب اليونان ، أو ترجمات كتبهم بالسريانية ، فحصلوا نتيجة لذلك على علم بمقالات اليونان وبآرائهم في الفلسفة والدين والحياة . وقد تكون بعض الآراء المنسوبة اليهم ، والتي ترجع الى أصل يوناني ، قد قالوها من أخذهم لها من تلك الكتب ومن دراستهم على من اتصلوا بهم من العلماء في أثناء وجودهم في العراق وفي بلاد الشأم .

ونجد في الأخبار أن الرسول كان يعدّ الرهبانية مخالفة للحنيفية ، إذ ورد أن أبا عامر بن صيفي — المعروف بالراهب لأنه كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح — قدم المدينة ورأى الرسول ، وسأله : ما هذا الذي جئت به ؟ — فقال الرسول : جئت بالحنيفية دين ابراهيم ، قال : فأنا عليها ، فقال الرسول: لست عليها ، ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها . وقد سماه الرسول الفاسق . فذهب مغاضباً للرسول كما تقول الروايات، متوجهاً الى قيصر ، ليحمله على توجيه جيش الى المدينة للقضاء على الإسلام ، غير أنه مات وهو في بلاد الشأم[2] .

---

١ Sprenger, Das Leben, Bd., I, S. 4, Ency., II, S. 259.

٢ مجمع البيان (٩/٦٤ وما بعدها) ، (٣/٥٠٠) ، (طبعة طهران) .

وقد خرج (أبو عامر) واسمه (عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان ابن أمة)[1] الراهب أحد (بني ضبيعة) الى مكة مباعداً لرسول الله ، معه خمسون غلاماً من الأوس ، منهم (عثمان بن حنيف) . « فكان يعد قريشاً ان لو قد لقي محرماً لم يختلف عليه منهم رجلان ، فلما كان يوم أحد ، كان أول من لقي أهل المدينة أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة ، فنادى يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر ، قالوا : فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق،وكان أبو عامر يسمى في الجاهلية (الراهب) فسمّاه رسول الله الفاسق ، فلما سمع ردهم عليه ، قاتلهم ثم راضخهم بالحجارة » . ثم رجع مع قريش الى مكة ثم خرج الى الروم يوم فتحت مكة فمات بها سنة تسع ، ويقال سنة عشر . وأعطى (هرقل) ميراثه لكنانة بن عبد ياليل الثقفي[2] ، وكان قد اختصم مع علقمة بن علاثة في ميراثه ، فدفع هرقل ميراثه لكنانة قائلاً لعلقمة : هما من أهل المدر وأنت من أهل الوبر.

وكان له ولد اسمه (حنظلة) أسلم ، واستأذن رسول الله في قتل أبيه ، فنهاه عن ذلك . فلما كان يوم أحد شهده ، والتقى هو وأبو سفيان ، فلما استعلى حنظلة رآه (شداد بن شعوب) فعلاه بالسيف حتى قتله ، وقد كاد يقتل أبا سفيان . فقال النبي : « إن صاحبكم تغسله الملائكة »[3] ، فعرف بـ (غسيل الملائكة)[4] . فكان الابن مع المسلمين في هذا اليوم ، وكان الأب مع المشركين .

وروي أنه كان يتزهد في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام خرج الى الشأم وأمر المنافقين باتخاذ مسجد الضرار ، وأتى قيصر فاستنجده على النبي[5] . وروي أنه هو الذي حزب الأحزاب لقتال الرسول : فلما خذل لحق بالروم يطلب النصر منهم ، وقال لأناس من الأنصار ابنو مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ،

---

١ تاريخ الطبري (٢/٥١٢) ، (معركة أحد) ، المحبر (٤٧٠) ، سيرة ابن هشام (٢/١٢٩) ، (حاشية على الروض) ، أبو عامر بن صيفي بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن زيد بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الاوس ، الاوسي ، الاصابة (١/٣٦٠) ، (رقم ١٨٦٣) ، مروج الذهب (١/٨٨) ، (دار الاندلس) .

٢ الاصابة (١/٣٦٠) ، (رقم ١٨٦٣) .

٣ الاستيعاب (١/٢٧٩ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .

٤ الاصابة (١/٣٦٠) ، (رقم ١٨٦٣) ، الاستيعاب (١/٢٧٩ وما بعدها) ، حاشية على الاصابة) .

٥ تفسير النيسابوري (٩/٧٦) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، روح المعاني (٩/١١١) .

فإني ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم ، فأخرج محمداً وأصحابه، وكان قد خرج معه كنانة بن عبد يا ليل الثقفي وعلقمة بن علاثة . فأما علقمة وابن ياليل (ابن بالين) ، فرجعا فبايعا النبي وأسلما ، وأما (أبو عامر) فتنصر وأقام[1] .

ويظهر أن (أبا عامر الراهب) ، كان قد وضع مع جماعة من الأنصار الحاقدين على الرسول وعلى المهاجرين الذين صاروا يزاحمونهم في أعمالهم ،واستحوذوا على التجارة واستغلوا أرض يثرب فقام قوم منهم بزراعتها ، خطة لعمل مكيدة يخرجون بها الرسول من المدينة ، يساعدهم في ذلك الروم . غير انها لم تنجح ، وهدم المسجد ، الذي تواعدوا على أن يكون موضع التآمر وملتقى الحاقدين على الرسول ، وقضي على المؤامرة ، وبقي (أبو عامر) عند الروم . فلما مات عاد (كنانة بن عبد يا ليل) الثقفي ، وكان رئيس ثقيف في زمانه ، وكان يقول: « لا يرثني رجل من قريش) ، مما يدل على أنه كان من الكارهين لقريش المتحاملين عليها وعلى الاسلام ، ففر الى (نجران) ثم توجه الى الروم . فلما مات (أبو عامر) عاد فأسلم[2] . وعاد (علقمة) أيضاً . وهناك روايات أخرى، تذكر أنه ارتد في أيام (عمر) ، والتحق بالروم ، ثم عاد الى الإسلام[3] .

ولاشتهار أبي عامر بالراهب ، ولما ورد في بعض الأخبار من انه كان حنيفاً ، ذهب (ولهوزن) الى ان الأحناف هم من النصارى ، وان حركتهم حركة نصرانية ، وانهم كانوا القنطرة التي توصل بين النصرانية والاسلام[4] . غير ان ما لدينا من معارف عن الأحناف ، لا يكفي لابداء رأي كهذا الرأي ، وللتسليم بمثل هذا القول ينبغي لنا الوقوف على آرائهم وقوفاً دقيقاً ومقارنة ما لدينا بما نعرفه من النصرانية لنتمكن من التوصل الى رأي علمي في هذا الشأن .

وفي بيت منسوب إلى أمية إشارة إلى الحنيفية ، ذكر فيه ان كل دين زور عند الله إلا دين الحنيفية . وقد رأينا ان أهل الأخبار يدخلون أمية في جملة

---

١ تفسير الطبري (١١/١٧ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (٧/٣٢٠) ، (٨/٢٥٣ وما بعدها) .
٢ الاصابة (٣/٣٠٥) ، (رقم ٧٥٣٢) .
٣ الاصابة (٢/٤٩٦) ، (٥٦٧٧) .
٤ Wellhausen, Reste, S. 239. f.

الحنفاء ، ويقولون : انه لبس المسوح تعبداً ، وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل وحرم الخمر[1] . ويلاحظ ان الأخباريين ينسبون الى عدد من هؤلاء الأحناف لبس المسوح ، مما يشير الى انهم كانوا قد تأثروا بالرهبان المتقشفين وبالزهاد النصارى الناسكين ، فأخذوا عنهم هذه الطريقة التي أشير اليها في القرآن الكريم وفي الحديث ، والتي عُدّت من البدع الممقوتة في الاسلام .

وقد أورد أهل الأخبار كلاماً ذكروا ان الأحناف قالوه ، هو من نوع كلام الكهان المرتب على طريقة السجع ، أوردوه بنصه على ما ذكروه . غير ان من الصعب تصور صدور ذلك الكلام المنمق من أناس عاشوا قبل الاسلام ، ومحافظة الناس عليه محافظة تامة إلى ما بعد الاسلام . ويظهر على كل حال من دراسة روايات أهل الأخبار عن الكهان والأحناف ان كلام رجال الدين قبل الاسلام كان على هذا النمط من السجع ، ومن جمل مكررة معادة عامة . وقد ظل السجع الطريقة المحببة في الكتابة الى ايامنا هذه عند بعض الكتّاب .

ويفهم من كلام الرواة ان بعض هؤلاء الحنفاء كانوا نصارى مثل ورقة بن نوفل ، أي على عكس ما يذكره الرواة أنفسهم من أن هؤلاء كانوا قد تجنبوا اليهودية والنصرانية متبعين ديانة ابراهيم[2] . والظاهر أن الرواة قد اشتبه عليهم الأمر ، فخلطوا في بعض الأحيان بين النصرانية وبين هؤلاء الذين أنكروا عبادة الأصنام واعتقدوا التوحيد .

ولدينا أمثلة أخرى على هذا الوهم . وسنرى من تراجم عدد من الاحناف ان منهم من يجب ادخاله في عداد النصارى ، لا الاحناف . وقد نص أهل الاخبار أنفسهم على تنصرهم ، غير انهم ادخلوهم مع ذلك في جملة الاحناف حين تكلموا عنهم . فكأنهم عنوا بالاحناف من كان على حياة الرهبنة والتقشف.

وقد أدخل (المسعودي) بعض الاحناف في جماعة اهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد ، ومن أهل التوحيد ، ممن يقر بالبعث . ثم قال : « وقد اختلف الناس فيهم ، فمن الناس من رأى انهم أنبياء ، ومنهم من رأى غير ذلك»[3].

---

١ كل دين يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفة زور
الاغاني (٤/١٢٢) « طبعة دار الكتب المصرية » .

٢ بلوغ الارب (٢/٢٧٠) .

٣ مروج (١/٧٨) ، (دار الاندلس) .

وقد ذكر من بينهم (حنظلة بن صفوان) ، و (خالد بن سنان العبسي) ، و (رئاب الشني) ، و (أسعد ابو كرب الحميري) ، و (قس بن ساعدة الإيادي) ، و (أميـــة بن أبـي السلط الثقفي) ، و (ورقة بن نوفل) ، و (عداس) مولى (عتيبـــة بن ربيعة الثقفي ، و (ابو قيس) (صرمة بن أبـي انس) الانصاري ، و (أبو عامر الاوسي) ، و (عبـدالله بن جحش الاسدي) ، و (بحيرا الراهب)[1] . ومن هؤلاء من كان على النصرانية ، وقد نص (المسعودي) نفسه على ذلك .

والذين ذكر الرواة أسماءهم من الحنفاء هم أناس عاشوا في الجاهليـــة المتصلة بالاسلام ، ومنهم من أدرك الرسول ، ولا عبرة بالطبع لما زعمه الأخباريون من طول عمر أولئك الأشخاص وبلوغ بعضهم مئين عدة من السنين ، وادخالهم في المعمرين[2] ، فان من عادة الأخباريين إطالة عمر هؤلاء وأمثالهم من الرجال البارزين الظاهرين ، ليكون ذلك مناسباً لما يجيء في أخبارهم من الحـــكم المنسوبة اليهم ، وهي فكرة عامة نجدها عند غير العرب أيضاً، ولذلك نجد صور الحكماء والفلاسفة في الغالب على صورة شيوخ أصحاب لحى طويلة بيض ورأس جلله الشيب أو قضى على شعره الزمن والتفكير ، فصلـع ، لأن هذه من علامات الحكمة والتفكير .

وعندي ان الحنفاء جماعة سخرت من عبادة الأصنام ، وثارت عليها وعـــلى المُثل الأخلاقية التي كانت سائدة في ذلك الزمن ، ودعت إلى إصلاحات واسعة في الحياة وإلى محاربة الأمراض الاجتماعية العديدة التي كانت متفشية في ذلك العهد، دعاها إلى ذلك ما رأته في قومها من إغراق في عبادة الاصنـــام ومن اسفاف في شرب الخمر ولعب الميسر وما شاكل ذلك من أمور مضرة ، فرفعت صوتها كما يرفع المصلحون صوتهم في كل زمن ينادون بالاصلاح ، وقد أثارت دعوتهم هذه المحافظين وأصحاب الجاه والنفوذ وسدنة الاوثان شأن كل دعوة إصلاحية . ويجوز ان يكون من بين هؤلاء من مال إلى النصرانية ، غير اننا لا نستطيـــع ان نقول انهم كانوا نصارى أو يهوداً ، انما أستطيـــع ان أشبه دعوة هؤلاء بدعوة الذين دعوا إلى عبادة الإلـه رب السماء (ذو سموى) أو عبادة الرحمـــن في اليمن ،

---

١ مروج (٧٨/١ وما بعدها) .

٢ جعل السجستاني عمر قس بن ساعدة الايادي ، وهو من الحنفاء ، ثمانين وثـلاث مئة سنة ، بلوغ الارب (٢٤٦/٢) .

متأثرين بمبادىء التوحيد التي حملتهـا اليهودية والنصرانيـة إلى اليمن . ولكنهم لم يكونوا أنفسهم يهوداً أو نصارى ، انما هم أصحاب ديانة من ديانات التوحيد .

ولا يعني قولي هذا ان الحنفاء كانوا على رأي واحد ودين واحد كالذي يفهم مثلاً من قولنا يهودي ونصراني ويهود ونصارى ، بمعنى أنهم كانوا طائفة معينة تسير على شريعة ثابتة كالذي ذهب (شبرنكر) اليه[1] . إنما كان أولئك الاحناف نفراً من قبائل متفرقة لم تجمع بينهم رابطة ، انما اتفقت فكرتهم في رفض عبادة الاصنام وفي الـدعوة الى الاصلاح . وهذا المعنى واضح في آيات القرآن الكريم التي أشارت الى الحنفاء .

والرجـال الذين قال أهل الاخبار عنهم إنهم كانوا على دين ، وكانوا من الاحناف ، هم : قس بن ساعدة الإيادي ، وزيد بن عمرو بن نُفيل ، وأميّة ابن أبي الصلت : وارباب بن رئاب ، وسويد بن عامر المصطلقي ، وأسعـد ابو كرب الحميري ، ووكيع بن زهير الإيادي ، وعمير بن جنـدب الجُهني ، وعدي بن زيد العبادي ، وأبو قيس صرمة بن أبي انس،وسيف بن ذي يزن ، وورقة بن نوفل القرشي ، وعامر بن الظّرب العدواني ، وعبد الطابخة بن ثعلب ابن وبرة بن قضاعة ، وعلاف بن شهاب التميمي ، والملتمس بن أمية الكناني، وزهير بن أبي سُلمى ، وخالد بن سنان العَبْسي ، وعبدالله القضاعي ، وعبيد ابن الابرص الاسدي ، وكعب بن لؤي بن غالب[2] .

وبعض هؤلاء مثل : (قس بن ساعدة الإيادي) و (عثمان بن الحويرث) و (عدي بن زيد العبـادي) نصارى ، وبعض منهم مثل (أسعد ابو كرب الحميري) ، (ابو كرب اسعد الحميري)[3] و (عبيد بن الابرص) ، و(زهير ابن أبي سلمى) ، مشكوك في أمرهم ، لا نستطيع أن نذكر شيئاً عن دينهم. ولهذا فأنا اذكرهم هنا بحذر ، مجاراة لمن أدخلهم في اهل الدين من الجاهليين . ولا أعني انهم كانوا على الحنيفية ، اي على شريعة التوحيد التي ينص عليها أهل الاخبار .

---

١ Sprenger, Das Leben, Bd., I, S. 4.

٢ بلوغ الارب (٢/٢٤٤ وما بعدها) ، مروج الذهب (١/٧٨) ، (دار الاندلس) .

٣ بلوغ الارب (٢/٢٤٤) ، مروج (١/٥٢ وما بعدها) .

وقد اقتصر (محمد بن حبيب) على ذكر بعض من تقدم ، حين تكلم عن (أسماء الذين رفضوا عبادة الاصنام) ، فذكرهم على هذا النحو : عثمان بن الحويرث ، وورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعبيد الله بن جحش ابن رئاب الاسدي . وذكر ان منهم من تنصر ومات على النصرانية ، مثل : عثمان بن الحويرث ، وورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش بن رئاب الاسدي[1] .

فأما قُس بن ساعدة الايادي ، فقد رفعه الاخباريون من مصاف أسوياء البشر ، ووضعوه في صف المعمرين الذين عاشوا مئين من السنين قيل سبع مئة سنة ، وقيل ست مئة سنة ، أو أقل من ذلك بكثير ، غير انه لا يقل عن ثلاث مئة سنة على كل حال[2] .

وأما مولده ، فمجهول . وأما وفاته ، فيكاد يحصل الاتفاق على انه كان قبيل البعثة . وقد ورد في رواية ان الرسول أدركه ورآه يخطب في سوق عكاظ خطبته الشهيرة المعروفة ، غير انه لم يحفظها ، وان أبا بكر ، وكان من جملة من حضر السوق وسمع الخطبة ، كان قد حفظها ، فأعادها على الرسول . وهي الخطبة الشهيرة المتداولة بين الناس والمحفوظة في الكتب . وهناك رواية تذكر ان الرسول كان يحفظها ، وقد تلاها على من حضر عنده ، وتلا بعضاً منها على وفد عبد القيس[3] .

---

١ المحبر (١٧١ وما بعدها) .

٢ وخيل : قس بن ساعدة بن حذافة بن زفر ، وقيل : حذافة بن زهر بن نزار . وقيل : قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن ايدعان بن النمر الخ ... وقيل : هو ابن ساعدة بن عمرو بن شمر بن عدي بن مالك ، وهكذا . بلوغ الارب (٢/٢٤٦) ، البيان والتبيين (١/٥٠) « طبعة السندوبي » ، (١٩٢٦) ، شعراء النصرانية (٢/٢١١) ، « قس بن ساعدة الايادي بن عمرو بن عدي بن مالك بن أبدطان « ايدعان » بن النمر بن وائلة بن الطمنان بن عوذ مناة بن يقدم بن أفصى » المحبر (ص ١٣٦) ، الاغاني (١٤/٤٠) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (٢/٢٣٠) الميداني ، مجمع الامثال (١/١١٧) .

٣ وفي نصها بعض الاختلاف ، راجع :
الاصابة (٥/٢٨٥) ، « وقدم وفد بكر بن وائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رجل منهم : هل تعرف قس بن ساعدة ؟ فقال رسول الله : ليس هو منكم . هذا رجل من اياد ، تحنف في الجاهلية ، فوافى عكاظ والناس مجتمعون ، فيكلمهم بكلامه الذي حفظ عنه » ، طبقات ابن سعد : الجزء الاول : القسم الثاني (ص ٥٥) ، « وفد بكر بن وائل » ، محاضر الابرار (ص ٤٨ وما بعدها) ، البداية والنهاية (٢/٢٣٠) .

ومما يلفت النظر في الروايات الواردة عن حفظ الرسول لخطبة (قس) ، هو اشارتها الى أن النبي كان يحفظ نص الخطبة ، ولم يكن يحفظ الشعر الملحق بها . مع ان حفـظ الشعر أيسر من حفظ النثر . ولعل الرواة رووا ذلك لإظهار أن الرسول كان لا يقول الشعر ، وانما كان يسمعه . ولكننا نجدهم من ناحية أخرى يروون أنه كان يتلو من الشعر المناسب ما شاء ان يتلو ، وانه كان يستشهد بـه في كلامه ، وأنه كان يحفظ شيئاً من شعر الماضين والحاضرين . ولن يضير النبوة من حفظ الشعر شيئاً .

والنص المحفوظ لخطبة (قس) نص مختلف لم يتفق الرواة عليه . ممـا يدل على أنه لم يكن مدوناً ، وإنما روي بروايات مختلفة ، ثم دونت فيما بعد .

وأوصل بعض الاخباريين قساً الى القيصر ، فزعموا انه ذهب اليه واتصل به ، وان القيصر أكرمـه وعظمه . وانه سأله عن العلم قائلاً له : ما أفضل العلم ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه . قال : فما أفضل العقل ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . قال : فمـا افضل الادب ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه . قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : قلة رغبة المرء في اخلاف وعده . قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحق[1] . وهو كلام ينبئك أسلوبه وطبيعته عـن أصله وفصله ، وله أصل يرجع الى الفلاسفة اليونان . ونسبوا له قبراً جعلوه في موضع (رَوْحين) على مقربة من حلب في لحف جبل ينذر له[2] .

ونجد حديث قيصر المزعوم مع (قس) ، في رواية أخرى على شكل آخر . وقد أهملت هذه الرواية اسم قيصر ، فلم تشر اليه ، واكتفت بلفظة (قيل) ، فقالت : « قيل لقس بن ساعدة : ما أفضل المعرفة ؟ قال : معرفة الرجـل بنفسه . قيل له : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ! قيل له : فما أفضل المروءة ؟ قال استبقاء الرجل ماء وجهه »[3] .

وقُس هو مخترع أوجد للعرب أشياء عديدة على زعم أهل الاخبار ، أحدث لهم أموراً كثيرة . فهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، وأول من توكأ

---

١ شعراء النصرانية (٢/٢١١) ، الامالي ، للقالي (٣/٣٧) « دار الكتب » ، العقد الفريد (٢/٢٥٤ وما بعدها ، ٢٩٠ وما بعدها) .
٢ شعراء النصرانية (٢/٢١٦) ، الاغاني (١٤/٤٠ وما بعدها) .
٣ العقد الفريد (٢/٢٩٠ وما بعدها) .

عند خطبته على سيف أو عصا وأول من علا على شرف وخطب عليه ، وأول من قال : « أما بعد » ، وأول من كتب « إلى فلان بن فلان »[1] . وأول من قال : « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » ، فكل ما عرفه العرب من هذه الامور ، هو من صنعة قس وعمله . ثم انه كان أحد حكماء العرب ، وكان أسقف نجران ، وخطيب العرب كافة[2] . وذكـروا ان له ولقومه فضيلة ليست لاحد من العرب ، لان الرسول روى كلامه وموقفه عـلى جمله الاورق بعكاظ وموعظته ، وعجب من حسن كلامه ، وأظهر تصويبه[3] ، وانه قال فيه: « يحشر أمة وحده »[4] .

وجاء في رواية في تفسير قول الرسول : « يحشر أمة وحده » ، أو «يرحم الله قساً ، إني لأرجو ان يبعث يوم القيامة أمة واحدة » ، ان وفـداً من إياد قدم على النبي : فسألهم عن قس ، فقالوا : هلك . فقال : رحمه الله ، كأني أنظر اليه بسوق عكاظ على جمل له أورق (أحمر) وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ما أوجدني أحفظه . فقال رجل من القوم ، أنا أحفظـه يا رسول الله . سمعته يقول : ايها الناس اسمعوا وعوا ... إلى آخر الخطبة ، وما جاء بعدها من شعر ، فقال رسول الله عندئذ قوله المذكور فيه[5] .

ويختلف هذا الخبر بعض الاختلاف مع خبر آخر أشرت اليه قبل قليل ، فقد ورد في ذلك الخبر أن رسول الله كان يحفظ تلك الخطبة ، غير أنه لم يكن يحفظ الابيات الملحقة بها ، وكان (أبو بكر) يحفظها ، فأعادها على مسامعه[6] . كما يختلف عن رواية أخرى ، جاء فيها ان الوفد الذي قدم على الرسول كان وفـد (عبد القيس) ، وأن الذي قرأ الشعر عليه هو أحد بني عبد القيس[7] .

---

١ المؤتلف والمختلف ، للمرزباني (٣٣٨) ، بلـوغ الارب (٢/٢٤٦) ، الاغـاني (١٤/٤٠ وما بعدها) مروج الذهب (١/٨٢) ، (٢/١٠٢) ، (دار الاندلس) ، البداية والنهاية (٢/٢٣٠ وما بعدها) .

٢ اللسان (٨/٥٨) ، شعراء النصرانية (٢/٢١١) .

٣ بلوغ الارب (٢/٢٤٦) .

٤ الاغاني (١٤/٤٠) .

٥ الاغاني (١٤/٤٠ وما بعدها) ، المعارف (٦١) ، البداية والنهاية (٢/٢٣٠ ومـا بعدهـا) .

٦ البداية والنهاية (٢/٢٣٠ وما بعدها) ، مجمع الامثال ، للميداني (١/١١٧) .

٧ البداية والنهاية (٢/٢٣٠ وما بعدها) .

ويذكر بعض أهل الاخبار ، ان (الجارود) ، وكان في ضمن رجال وفد (عبد القيس) ، قال للرسول حين سأل عن (قس) : « فداك أبي وأمي كلنا نعرفه وإني من بينهم لعالم بخبره ، واقف على أمره . كان قس يارسول الله سيطاً من أسياط العمر عمّر ستمائة سنة، تقفر منها خمسة أعمار في البراري والقفار» . ثم أخذ في وصفه وفي ذكر عقائده ، وفي لقياه لـ (سمعان) رأس الحواريين . وخلص بعد ذلك الى ذكر نص خطبته بسوق عكاظ،ومطلعها : « شرق وغرب» ، حتى انتهى منهـــا ، ثم ألحق بها شعراً[1] . وهي خطبة تختلف تماماً عن الخطبة المعروفة التي تنسب اليه ، وان كانت على نمطها من حيث الاسلوب والافكار ، وفيها مصطلحات اسلامية ترد في القرآن الكريم . ولا استبعد ان تكون من وضع شخص آخر غير الجارود . وضعها في العصور العباسية ، للحث على الزهد .

والجارود من سادات عبد القيس ، وكان نصرانياً ، قدم على النبي سنة عشر في وفد عبد القيس الاخير ، وسرّ الرسول بإسلامه ، وكان حسن الإسلام صلباً على دينه ، وقتل بأرض فارس في خلافة عمر ، وقيل بقي الى خلافة عثمان[2] .

ولو صح ما ذكروه من انه كان أسقفاً على نجران ، لوجب اخراجه اذن من الحنيفية وإدخاله في عداد النصارى . ولكن ليس مؤكداً انه كان اسقفاً على ذلك الموضع ، ويرى الاب (لامانس) احتمال كونه نصرانياً ، لان ما نسب اليه يبعث على هذا الظن[3] . وقد أدخـــل الاب (لويس شيخو) قساً في جملة النصارى الجاهليين،وأورد اكثر ما نسب اليه في ترجمته[4] . غير ان كثيراً من هذا المنسوب اليه منسوب إلى غيره . وقد اشار إلى من نسب اليهم العلماء .

وذهب (شبرنكر) إلى ان قساً كان من (الركوسية) ، وهم فرقة عرفهم اهل اللغة بأنهم بين النصارى والصابئين ، شملت جماعة من الحائرين في امر دينهم، ولذلك عمدوا إلى السياحة والترهب والانزواء[5] . وقـــد حسبهم العرب نصارى ، فأدخلوهم فيهم في اثناء كلامهم على هؤلاء[6] .

---

١ البداية والنهاية (٢/٢٣٠ وما بعدها) .
٢ الاصابة (١/٢١٧ وما بعدها) ، (رقم ١٠٤٢) .
٣ Ency., II, p. 1161, Sprenger, Leben, I, S. 45.
٤ شعراء النصرانية (٢/٢١١ وما بعدها) .
٥ تاج العروس (٤/١٦٣) .
٦ Sprenger, Leben, I, S. 43.

ويرى (لامانس) انه لو كان قس شخصية تأريخية حقاً ، فإن زمانه لا يمكن ان يكون في ايام الرسول او في ايام مقاربة من ايامه . إذ لا يعقل عنده ان يتكون هذا القصص الذي صير قساً شخصية من الشخصيات الخرافية ، لو كان من المعاصرين او المقاربين له . ثم إن اياداً لم تكن في ايام الرسول كتلة واحدة، حتى ينسب قس اليها . فلا بد اذن ان تكون ايام هذا الرجل بعيدة بعض البعد عن ايام الرسول[1] .

غير ان حجج (لامانس) المذكورة لا يمكن ان تكون سنداً يؤيد ادعاءه في ان قساً كان شخصية خرافية ، او انه كان رجلاً حقاً ، ولكنه كان بعيد العهد عن الرسول . فقد روى الاخباريون قصصاً كثيراً عن سلمان الفارسي وعن غير سلمان من الصحابة ، لا يقل نسيجاً عن نسيج قصص قس ، فهل يتخذ هذا القصص حجة لانكار شخصية سلمان وغيره ممن ورد هذا القصص عنهم ؟ وهل يجوز ان نقول إن سلمان إن كان شخصاً حقاً فوجب ان تكون ايامه بعيدة عن ايام الرسول.

ولدى الرواة أبيات ينسبونها الى بعض الشعراء الجاهليين ، هم : الاعشى ، والحطيأة ، ولبيد ، ذكر فيها اسم قُسّ . وقد أشيد فيها بفصاحته وببلاغته وحكمته ، حتى جعل لبيد لقمان دون قس في الحكم[2] .

وورد اسم (قس) في هذا الشعر وفي أمثاله إن صح انه من شعر الجاهليين حقاً ، وورود اسمه في الحديث وفي الاخبار ، هو تعبير عن رأي اهل الجاهلية في خطيب مفوه عدّ في نظرهم المثل الاعلى في الخطابة وممثل البلاغة عندهم فهو كشيوخ الخطباء عند اللاتين .

---

١ Ency., II, p. 1161.

٢ قال لبيد :

وأخلف قسا ليتني ولعلني وأعيا على لقمان حكم التدبر

الاصابة (٥/٢٨٥) « قس » ، قال الاعشى :

وأحلم من قس وأجرى من الذي بذى الغيل من خفان أصبح حاردا

وفي رواية أخرى :

وأحلم من قيس وأجرء مقدما لذى الدرع من ليث اذا راح حاردا

ديون الاعشى (ص ٤٩) « تحقيق R. Geyer » . المؤتلف والمختلف (ص ٣٣٨) ، وقال الحطيأة :

وأقول من قس وأمضى اذا مضى من الرمح اذ مس النفوس نكالها

المؤتلف والمختلف (ص ٣٣٨) .

وجميع هذا القصص المروي عن قس ، هو من النوع الذي يحتاج الى تمحيص. وقد نسبوا اليه شعراً ، زعموا انه قاله وهو يبكي بين قبرين بنى بينهما مسجداً ، هما قبرا أخويه ، على حين ان أكثر الرواة يقولون إن هذا الشعر لغيره ، وان قصة القبرين لا تخص قساً،بل تخص أناساً آخرين ، وقد كانا في ايران وأصحابهما قبرا فيها في الاسلام . ورواة هذا الخبر ، هم رواة خطبة قس الشهيرة ، وهم محمد بن السائب الكلبي عن ابي صالح ابن عباس وجماعة آخرون أشار (ابن حجر) الى بعضهم في كتابه : « الإصابة في تمييز الصحابة » ، وقد ضعف ابن حجر هذه الطرق ، فقال : « وقد أفرد بعض الرواة طريق حديث قس ، وفيه شعره وخطبته ، وهو في الطوالات للطبراني وغيرها . وطرقه كلها ضعيفة»[1]. ثم عرج بعد ذلك الى ذكر بعض الطرق التي وردت فيها خطبة قس .

واما (زيد بن عمرو بن نُفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبدالله بن قرط ابن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر) ، فهو من قريش من بني عدي ، لم تعجبه عبادة قومه ، فانتقدها وسخفها وهزىء منها ووقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه ، فاعتزل الاوثان ، ونهى عن قتل الموؤودة ، وامتنع من الذبح للأنساب ومن أكل الميتة والدم وما ذبح للأصنام . فكان في آرائه هذه مثل نفر آخر من قريش منهم : ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيدالله بن جحش ، لاموا قومهم على عبادتهم الاصنام ، واتخاذ الانصاب وعبادة ما لا يضر ولا ينفع[2] . وهم طائفة من المفكرين ، رأى بعضهم بلاد الشأم ، واتصل ببعض المبشرين النصارى ، ووقف على التطورات الفكرية في الخارج ، ولعله كان يقرأ ويكتب ، وله اطلاع على مؤلفات في الفلسفة والدين.

وترجع احدى الروايات سبب خروج (زيد) على عبادة قومه ، انه حضر يوماً وحضر معه في ذلك اليوم (ورقة بن نوفل) ، و (عبدالله بن جحش) و (عثمان بن الحويرث) ، عيداً من أعياد قريش ، عند صنم من أصنامهم ،

---

١ الاغاني (١٤/٤٠ وما بعدها) ، الاصابة (٥/٢٨٦) .

٢ ابن هشام (١/٢٤٤ وما بعدها) ، ارشاد الساري (٦/١٩٠) ، أسد الغابة (٢/٢٣٦) ، طبقات الشعراء (ص ٦٦) « طبعة ليدن » ، البداية والنهاية (٢/٢٣٧) ، ابن خلدون ، القسم الاول ، المجلد الثاني (ص ٧٠٧) ، المسعودي ، مروج (١/٧٠) « محمد محيي الدين عبد الحميدي » الاغاني (٣/١١٣) ، البخاري (٥/٥٠) ، المعارف (٢٧) .

كانوا يعظمونه ، ويعكفون عنده ، او يديرون به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً ، وكانوا ينحرون له ، فلما خلد بعضهم إلى بعض وتصادقوا ، قالوا ليكتم بعضكم على بعض ، واتفقوا على ذلك ، ثم قال قائلهـــم : تعلمون والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطأوا دين ابراهيم وخالفوه . ما وثن يعبد؟ لا يضر ولا ينفع فابتغوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء . فخرجوا يطلبون ويسيرون في الارض يلتمسون اهل الكتاب »[1] .

وقد زار زيد الشأم والبلقاء ، وعاش الى خمس سنين قبل البعث ، فهـو من أولئك الرهط الثائرين على قومهم ، والذين أدركوا أيام الرسول . وقد نسبوا اليه شعراً في تسفيه عبادة قومه ، وفي فراقه دينهم وما لقيه منهم . وكان قد أوذي لمقالته هذه في دين قومه ، حتى اكره على ترك مكـــة والنزول بـ (حراء) ، وكان (الخطّاب بن نفيل) عمه ، وقد وكل به شباباً من شباب قريش وسفهاء من سفائهم كلفهم ألاّ يسمحوا له بدخول البلدة ويمنعـــه من الإتصال بأهلها ، مخافة ان يفسد عليهم دينهم وان يتابعه احد منهم على فراق ما هم عليه . واضطر زيد الى المعيشة في هذا المحل ، معتزلاً قومه ، إلا فترات ، كان يهرب خلالها سراً ، ليذهب الى موطنـــه ومسكنه ، فكانوا اذا أحسوا بوجوده هناك ، آلموه وآذوه[2] .

وورد في رواية ، يرجع رواتها سندها الى (هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل) ، اي الى حفيد (زيد) ، تذكر أن (زيد) خرج مع (ورقة ابن نوفل) يلتمسان الدين ، حتى انتهيا الى راهب بالموصل ، فسأله عن الدين ، فلم يقتنع بالنصرانية ، اما (ورقة) ، فاقتنع بها وتنصر[3] . وتذكر رواية أخرى ان (زيد بن عمرو) خرج الى الشأم ومعه : (ورقة بن نوفل) ، و (عثمان ابن الحويرث) ، و (عبيد الله بن جحش)[4] . ويـــذكر الرواة أن زيداً كان

---

١ البداية (٢/٢٣٨) ، ابن هشام ، سيرة (١/٢٤٢) .
٢ ابن هشام (١/٢٤٠ وما بعدها) (البابي) ، بلوغ الارب (٢/٢٥١ وما بعدها) ، ابن سعد ، الطبقات (١/١٦٢) « طبعة دار صادر » ، مروج الذهب (١/٧٠) « القاهرة ١٩٥٨ م » ، البدايه (٢/٢٣٨) .
٣ البداية (٢/٢٣٨) .
٤ البداية (٢/٢٤٣) .

نديماً لورقة بن نوفل ، فمات ورقة ، وخرج زيد الى الشأم ، فقتله لخم وجذام[1].

ويذكر أهل الاخبار ان حرصه على الحنيفية وتمسكه الشديد بها ، حمله على السفر إلى بلاد شاسعة بحثاً عنها وعن مبادئها الصحيحة ، مبادىء ابراهيم الاصيلة الخالية من كل درن وشائبة . فذهب إلى الموصل والجزيرة ، ثم طاف في بلاد الشأم حتى انتهى إلى راهب بـ (ميفعة)[2] (ببيعة)[3] من أرض البلقاء أو (أيلة) ، فسأله عما قدم من أجله ، فأرشده إلى ان ما يبتغيه ويراه لا يجده في النصرانية، فغادره وتركه ، وعاد يريد مكة موطنه . فلما توسط بلاد لخم أو جذام ، عدوا عليه وقتلوه . وقالوا أيضاً انه التقى في اثناء أسفاره هذه بأحبار اليهود وبعلماء من النصارى ، ولكنه لم يجد عندهم ما يطمئن نفسه ، وما يرى فيه التوحيد الخالص ، ومبادىء ابراهيم ، لذلك لم يدخل في ديانة ما من تلك الديانتين ، حتى قتل[4] .

وتذكر رواية من الروايات ، أن (زيد بن عمرو بن نفيل) مات بالسمّ في بلاد الشأم ، سمّه بعض ملوك غسان[5] . وتجعل رواية أخرى مقتله بمكان يقال له (ميفعة) من أرض البلقاء بالشأم ، وتذكر ان قتلته هم من بني لخم[6] . وتذكر رواية ان (ورقة بن نوفل) ، لما سمع بخبر وفاته بكاه في شعر له[7] .

وهناك روايات أخرى تفيد رجوع زيد الى قومه بعد عودته من الشأم،ووفاته وفاة طبيعية لا قتلاً بيد إنسان . « توفي وقريش تبني الكعبة قبل ان ينزل الوحي على رسول الله بخمس سنين » ، ودفن بأصل حراء[8] .

---

١ المحبر (١٧٥) .
٢ ابن هشام (١/٢٤٩) .
٣ « ببيعة » ، البداية (٢/٢٣٨) .
٤ ابن هشام (١/٢٤٩ وما بعدها) ، طبقات ابن سعد : الجزء الثالث : القسم الاول (ص ٢٧٦ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٢/٢٥١ وما بعدها) ، « فلما توسط أرض جذام عدوا عليه فقتلوه » المحبر (ص ١٧٢) ، سير أعلام النبلاء ، للذهبي (١/٩٠ وما بعدها) ، ابن خلدون (٢/٧٠٧ وما بعدها) ، المسعودي ، مروج (١/٧٠) ، ارشاد الساري (٦/١٧٢ وما بعدها) .
٥ المسعودي ، مروج (٢/٥٦) .
٦ البداية (٢/٢٤١) .
٧ ابن هشام (١/٢٤٩ وما بعدها) .
٨ طبقات ابن سعد : الجزء الثالث : القسم الاول (ص ٢٧٧) ، البداية (٢/٢٤١) .

وفي رواية تظهر عليها سيماء الصنعة ، أن الذي أرشد (زيد بن عمرو) الى الحنيفية ، حبر التقى به في بلاد الشأم ، وعالم نصراني ، وذلك أنه كان قد سألهما عن دين صحيح قويم ، فأرشداه الى الحنيفية دين ابراهيم . فدخل فيها وصار يرفع يديه الى الله ويقول : اللهم إني أشهدك اني على دين ابراهيم[1] . ونجد في هذه الرواية أسئلة وجهها (زيد) الى الحبر في البحث عن الله وعن دينه الحق، وأجوبة الحبر عليها . كما نجد أسئلة أخرى ذكر أنه وجهها الى العالم النصراني ، ونجد أجوبة ذلك العالم عليها . وكيف أنهما دلاه على الحنيفية[2] .

وذكر (ابن حبيب) ان زيداً (أول من عاب على قريش ما هم عليه من عبادة الأوثان)[3] . وقال عنه (ابن دريد) ، وكان قد « ترك دين العرب في الجاهلية وقلاه »[4] . وقصد بـ (دين العرب) الوثنية ولا شك . وزعم انه « كان يحيي الموؤودة . يقول للرجل اذا أراد ان يقتل ابنته مهلاً : لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها اليك ، وإن شئت كفيتك مؤونتها »[5] . وقيل انه كان يقول : « اللهم لو أعلم أي الوجوه أحب اليك سجدت اليه . ولكني لا أعلمه . ثم يسجد على راحته »[6] . وانه كان « يقول : إلهي إلـه ابراهيم ، ودِيني دين ابراهيم . وكان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم الله تعالى ! انكاراً لذلك واعظاماً له »[7] . أو « يا معشر قريش : أيرسل الله قطر السماء ، وينبت بقل الأرض ، ويخلق السائمة فترعى فيه ، وتذبحوها لغيره ! والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين ابراهيم غيري »[8] . ويستقبل القبلة ثم يقول :

---

١ الطبري ، تفسير (٣٠٦/٣) ، صحيح البخاري (٥٠/٥) ، « مطبعة الازهر بمصر »،
٢ الاغاني (١٢٦/٣ وما بعدها) « دار الكتب المصرية » ، البداية (٢٣٨/٢) .
٣ المحبر (ص ١٧١) .
٤ الاشتقاق (ص ١٠٣) .
٥ طبقات ابن سعد ، الجزء الثالث : القسم الاول (ص ٢٧٦ وما بعدها) .
٦ المحبر (ص ١٧١) .
٧ أسد الغابة (٢٣٦/٢) ، طبقات الشعراء (٦٦) « طبعة ليدن » ، بلوغ الارب (٢٤٨/٢) ، البداية والنهاية (٢٣٧/٢) ، ارشاد الساري (١٧١/٦ وما بعدها)
٨ الاغاني (١١٩/٣ وما بعدها) .

أنفي لرب البيت عانٍ راغم مهما يُجشّمني فإني جاشم
عذت بمـا عاذ به ابراهيم مستقبل القبلة وهو قائم[1]

وروى ان أسماء بنت أبي بكر « قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره الى الكعبة يقول : يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين ابراهيم غيري . ثم يقول : اللهم اني لو أعلم أحب الوجوه اليك عبدتك به . ولكني لا أعلم . ثم يسجد على راحته »[2] . ثم يصلي الى الكعبة ويقول : إلهي إلـه ابراهيم ، ودِيني دين ابراهيم[3] .

وذكر (ابن دريد) أن (زيد بن عمرو بن نفيل) ، أدرك أيام الرسول ، ثم قال : « وكان النبي عليه الصلاة والسلام قبل الوحي قد حبب اليه الانفراد ، فكان يخلو في شعاب مكـة ، قال : فرأيت زيد بن عمرو بن نفيـل في بعض المشاعب ، وكان قـد تفرّد أيضاً ، فجلست اليه وقربت اليه طعاماً فيه لحم ، فقال لي يا ابن أخي اني لا آكل من هذه الذبائح »[4] .

وذكر (ابن دريد) ، أن زيد بن عمرو قال شعراً في تجنبه الأصنام، هو :

فلا عُزى أدين ولا ابنيتهـا ولا صنمي بني عمرو أزور
أربّاً واحداً أم ألف ربّ أدين اذا تقسمت الأمور[5]

ويفهم من هذا الشعر أن (عزى) ، إلهة ، أي انثى ، وان لها ابنتين اثنتين. ولم يشر (ابن دريد) الى اسميهما .

وقد صيغت الرواية المتقدمة التي تشير الى التقاء الرسول بزيد في شكل آخر . صيغت بهذه الصورة : « أتى زيد بن عمرو بن نفيل على رسول الله صـلى الله

---

١ كتاب نسب قريش ، للزبيري (ص ٣٦٤) .
٢ البداية (٢٣٧/٢) ، الذهبي ، تأريخ الاسلام (٥٤/١) . البغدادي ، خزانـة (٩٩/٣) .
٣ المصدر نفسه .
٤ الاشتقاق (٨٤) ، ارشاد الساري (١٧١/٦ وما بعدها) .
٥ الاشتقاق (٨٤) ، وورد :

أرباً واحـدا أم ألـف رب أدين اذا تقسمت الامـور
عزلت الـلآت والعزى جميعـا كذلك يعقل الجلد الصبور
فـلا عـزى أديـن ولا ابنتيهـا ولا صنمي بني عمـرو أزور

عليـــه وسلّم ، ومعه زيد بن حارثة ، وهما يأكلان من سُفرة لهما ، فدعواه لطعامهما ، فقال زيد بن عمرو: يا ابن أخي : أنا لا آكل مما ذبح على النصب»[1].

وورد خبر التقاء (زيد) مع رسول الله في رواية أخرى . يرجع رواتهـــا سندها الى (زيد بن حارثة) . يذكرون أنه قال : خرجت مع رسول الله في يوم حار من أيام مكة ، وهو مردفي ، فلقينا زيد بن عمرو بن نفيل ، فحيـــا كل منا صاحبه . فقال النبي : يا زيد مالي أرى قومك قد شنقوك ؟ فأجابـــه زيد ، بأنه لا يهتم بذلك ، وأنه خرج يبتغي دين الله ، حتى قدم على أحبـــار خيبر ، فوجدهم يعبدون الله ويشركون به . ثم سأل أحد الأحبار ، وهو شيخ منهم عن الدين الذي يبتغيه، فقال له : ما نعلم أحد يعبد الله به إلا شيخاً بالحيرة، فخرج اليه . فلما كلمه قال له : إن الذي تطلب قد ظهر ببلادك قد بعث نبيّ، قد طلع نجمه . فعاد الى مكة[2] . ولو صح هذا الخبر لوجب أن يكون زيد قد أدرك مبعث الرسول . ولكن أهـــل الأخبار مجمعون على أنه توفي قبل المبعث . وان الرسول نفسه قـــال عنه : يبعث يوم القيامة أمة واحدة . وعلى الخبر سيماء الصنعة والترويق .

وروي عنه ان قومه كانوا اذا دعوه الى وليمة ، كان يأبى ان يأكل منها قائلاً : « اني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه »[3] . وهكذا كان يقاطع أكل لحوم الحيوانات التي تذبـــح للأصنام . ويشاركه في الامتناع عن أكل لحوم هذه الذبائح الأحناف الآخرون ، فقد روي ان ورقة بن نوفل كان لا يأكل من لحوم هذه الذبائح أيضاً للسبب المذكور[4] .

ويذكر أهل الأخبار ان (زيد بن عمرو بن نفيل) كان اذا خلص الى البيت استقبله ثم قال : لبيك حقاً حقاً ، تعبداً ورقاً ، البر أرجو لا الخال ، وهـــل مهجر لمن قال . ثم يقول :

عذت بما عاذ به ابراهيم مستقبل الكعبة وهو قائم[5]

---

١ البداية (٢/٢٣٨ ، ٢٤٠) .
٢ أسد الغابة (٢/٢٣١) .
٣ البخاري (٥/٥٠) .
٤ الاغاني (٣/١١٩) .
٥ الاغاني (٣/١١٧) .

أو « لبيك حقاً ، تعبداً ورقاً ، عذت بما عاذ به ابراهيم »[1] .

وذكر انه كان يأمر بالتوحيد وبعبادة إلـه واحد . من ذلك قوله :

لا تعبدنّ إلهاً غير خالقكم وإن دعيتم فقولوا دونه حدد[2]

وزُعم انه كان يراقب الشمس ، فإذا زالت استقبل الكعبة ، فصلى وسجد سجدتين ، ثم يقول : هذه قبلة ابراهيم واسماعيل لا أعبد حجراً ولا أصلّي له ولا آكل ما ذبح له ، ولا أستقسم بالأزلام ، وانمـا أصلّي لهذا البيت حتى أموت . وكان يحج فيقف بعرفة ، وكان يلبي ، فيقول : لبيك لا شريك لك، ولا ندّ لك . ثم يدفع من عرفة ماشياً ، وهو يقول : لبيك متعبداً مرقوقاً[3] .

ويروي أهل الأخبار أقـوالاً أخرى لزيد ، كما رووا له أشعاراً زعموا أنه قالها ، وهي في هذه الأمور التي ينسبونها الى الأحناف من ذكر لديانـة ابراهيم وللتوحيد ومن ذمّ الى الأصنام ومن اصلاح لحال مجتمع ذلك اليـوم[4] . كما رووا له أبياتاً من شعر زعموا أنه نظمه يعاتب فيه زوجته (صفية بنت الحضرمي) ، لأنها كانت تمانع في خروجه عن مكة وفي سفره الى الخارج التماساً لهذا الدين[5] .

وتفيد رواية من روايات أهل الأخبار بأن (زيد بن عمرو بن نفيل) ، كان في جملة من اشترك في (حرب الفجار) ، تقول إنه كان على رأس (بني عدي) وذلك في يوم شمطة[6] .

وروي أن رسول الله سئل عن (زيد بن عمرو) ، فقال : « يبعث أمـة وحده يوم القيامة »[7] . بل روي أنه ترحم عليه ، وأنه قال : « رأيته في الجنة يسحب ذيولاً »[8] .

---

١ الاغاني (٢/٢٣٨) .
٢ تاج العروس (٢/٣٣١) ، (حدد) .
٣ البداية (٢/٢٣٩) .
٤ الاغاني (٣/١١٧) .
٥ ابن هشام ، سيرة (١/٢٤٧) .
٦ البلاذري ، انساب (١/١٠٢) .
٧ البخاري (٥/٥٠) ، المعارف (٢٧) ، البغدادي ، خزانة (٣/١٠٠) .
٨ ابن سعد ، طبقات (٣/٢٧٣) .

وينسب أهل الأخبار لزيد شعراً، هومن هذا الشعر الذي ينسبونه الى الأحناف، ذي الطابع الديني، من بحث عن توحيد، وحث على عبادة إلّه واحد، واقرار بحساب وكتاب. وأمثال ذلك[1]. وقد نسب بعض منه الى (أمية بن أبي الصلت)، ونسب بعض منه الى شعراء آخرين. كما ان الرواة يروون هذا الشعر بقراءات مختلفة.

ومن ولد زيد رجل كان له سبق وقدم في الاسلام، هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل. كان من السابقين الأولين ومن المهاجرين، شهد المشاهد والأحداث المهمة، إلا بدراً، فإنه لم يكن حاضراً بالمدينة إذ ذاك. وهو أحد العشرة المبشرة. ذكر انه أسلم قبل دخول رسول الله دار الأرقم. ولا بد ان يكون لرأي والده في دين قومه وما أبداه من ثورة صريحة جامحة على عقائدهم أثر في نشوء هذا الابن وفي اقدامه مع السابقين على الدخول في الاسلام، بعد ان كان والده قد سبق إسلامه برحيله الى الآخرة بسنين. وأمه (فاطمة بنت بعجة بن أمية بن خويلد بن خالد بن اليعمر) من خزاعة. ولسعيد أخت اسمها عاتكة بنت زيد[2].

وذكر (ابن هشام) ان زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، اتفقوا في الرأي والعقيدة، وتعاهدوا على نبذ عبادة قومهم وما كانوا عليه من ضلال، وتصادقوا، وكوّنوا عصبة خرجت على عبادة قريش، فلم يشتركوا معهم في أعيادهم، ولم يشاركوهم في عبادتهم، وظلوا حتى ماتوا عن عبادة قومهم صابئين[3].

أما عبيد الله بن جحش بن رئاب بن أسد بن عبد العزى بن قصي، فقد بقي مرتاباً في دين قومه، بعيداً عنهم وعن عبادتهم، حتى اذا ظهر الإسلام دخل فيه، ثم هاجر مع من هاجر الى الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت مسلمة كذلك. فلما صار في الحبشة، فارق الإسلام

---

١ البداية (٢/٢٤١ وما بعدها).
٢ كتاب نسب قريش (٣٦٥)، الاستيعاب (٤/٣٦٥)، الاصابة (٢/٤٤)، (رقم ٣٢٦١).
٣ ابن هشام (١/٢٤٢) «طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد»، المحبر (١٧١، ١٧٥، ٢٣٧)، الروض الانف (١/١٤٥).

وتنصر ، وهلك هناك [1] .

وأما عثمان بن الحويرث ، فقد بقي مغاضباً قومه في دينهم ، ثم رأى الذهاب الى الروم ، فذهب اليهم ، وتقرب الى قيصر ، وحسنت منزلته عنده ، وتنصر ومنحه لقب (بطريق) ، وأراد تنصيبه ملكاً على مكة ، ولكن قومه أبوا عليه ذلك ، فلم يتمّ له مراده ، ومات بالشأم مسموماً ، سمّه عمرو بن جفنة الغساني [2].

وذكر (الزبيري) ، أن والدة (عثمان بن الحويرث) ، هي (تماضر بنت عمير بن أهيب بن حذافة بن جمح) [3] . وأنه خرج الى (قيصر فسأله أن يملّكه على قريش ، وقال : أحملهم على دينك ، فيدخلون في طاعتك ، ففعل . وكتب له عهداً وختمه بالذهب ، فهابت قريش قيصر ، وهمّوا أن يدينوا له ، ثم قام الأسود بن المطلب أبو زمعة ، فصاح ، والناس في الطواف : إن قريشاً لقاح، لا تملك ولا تملك . فاتسعت قريش عـلى كلامه ، ومنعوا عثمان مما جاء له ، فمات عند ابن جفنة ، فاتهمت بنو أسد ابن جفنة بقتله » [3] . وكان ابن جفنـة حبس أبا ذئب عنده ، وأبا أحيحة بسبب عثمان بن الحويرث [4] . ويقصدون بابن جفنة : عمرو بن جفنة الغساني [5] .

وتذكر احدى الروايات ، ان وفاة (عثمان بن الحويرث) كانت بالشأم ، وقد مات عند قيصر ، وكانت وفاته قبل المبعث بثلاثين سنة ، أو نحوها . وقد رثاه (زيد بن عمرو بن نفيل) [6] ، وورقة بن نوفل [7] .

ويعد (عثمان بن الحويرث) من أشراف (بني أسد) من قريش [8] . وقـد كان مع (خويلد بن أسد) على رأس (بني أسد) في (حرب الفجار) [9] .

---

١ ابن هشام (١/٢٤٣) ، المحبر ٧٦ ، ٨٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣) ، البداية (٢/٢٤٣) .
L. Krehl, Das Leben Muhammad, S. 14.

٢ ابن هشام (١/٢٤٣) ، الاشتقاق (ص ٥٩) ، المحبر (١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ٣٠٧) ، الروض الانف (١/١٤٦) .

٣ كتاب نسب قريش (٢٠٩ وما بعدها) ، وذكر صاحب « المحبر » أن أمه مـن الحبشيات (٣٠٧) .

٤ كتاب نسب قريش (٢١٠) .

٥ جمهرة ابن حزم (١٩٠) .

٦ البداية (٢/٢٤٣) .

٧ كتاب نسب قريش (٢١٠) .

٨ المحبـر (١٦٥) .

٩ المحبـر (١٧٠) .

وكان ينادمه (شيبة بن ربيعة بن عبد شمس) . وقد تنصرا جميعاً ، وقتل شيبة يوم بدر كافراً [1] .

وأما (أمية بن أبي الصلت) ، فهو أحسن الحنفاء حظاً في بقاء الذكر ، بقي كثيراً من شعره ، وربما وضع كثير منه على لسانه ، وحفظ قسط لا بأس به من أخباره . وسبب ذلك بقاؤه الى ما بعد البعث ، واتصاله بتأريخ النبوة والاسلام اتصالاً مباشراً وملاءمة شعره بوجه عام لروح الاسلام . لم يكن مسلماً ولم يرض أن يدخل في الإسلام ، لأنه كان يأمل أن تكون النبوة فيه ، وأن ينزل الوحي عليه ، فيكون نبي العرب والعالم أجمعين . فلما رأى النبوة في الرسول ، حسده ، وأثار المشركين عليه ، ورثى قتلاهم في معركة بدر ، وحرض قريشاً عليه ، حتى مات على حسده وعناده سنة تسع للهجرة بالطائف قبل أن يسلم قومه الثقفيون . لم يمت مسلماً ، ولم يمت على دين الوثنيين من قومه : بل مات كافراً بالديانتين [2] .

وقد جاء في بعض الروايات ، ان وفاة (أمية) ، كانت في السنة الثانية من الهجرة [3] . وورد في روايات أخرى أنه توفي سنة تسع للهجرة ، كافراً قبل أن يسلم الثقفيون [4] .

ورثاؤه قتلى معركة بدر ، محفوظ في قصيدة حائية ، مطلعها :

ألا بكيت على الكرا م بني الكرام أولى المادح
كبكا الحمام على فرو ع الأيك في الغصن الصوادح

---

١ المحبر (١٧٥) .

٢ الاغاني (٤/١٢٠ وما بعدها) ، « طبعة دار الكتب المصرية » ، ابن هشام (١/١١، ٤٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٨) ، (٢/١٦٠ ، ٣٢١ ، ٤٠١ ، ٤٠٦) ، (٣/٦٥) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » ، شرح السيرة النبوية ، لابي ذر بن محمد بن مسعود الخشني (١/٢٣ ، ٢٤) ، « تحقيق بولس بروفله » نسب قريش (٩٨) ، جمهرة الانساب (٢٥٧) ، ابن قتيبة ، الشعراء (٤٢٩) ، شعراء النصرانية (٢/٢١٩ وما بعدها) ، الاغاني (١٦/٦٩) ، الحيوان للجاحظ (٢/٣٢٠) ، خزانة الادب (١/١١٩) ، الشعر والسعراء (١٧٦) ، النووي ، تهذيب الاسماء (١/١٢٦) ، Ency. IV, p. 997.

٣ تاريخ الخميس (١/٤١٢) ، الاغاني (٤/١٢٤ ، ١٢٩) ، الشعر والشعراء (١/٣٦٩) .

٤ الاصابة (١/١٣٤) ، (رقم ٥٥٢) .

وهي قصيدة يتوجع فيها أمية لسقوط قتلى المشركين ، ودفنهم بالقليب،وفيهم (عتبة) و (شيبة) ابنا (ربيعة بن عبد شمس) ، وهما ابنا خالة أميـــة . وقد ذكر بعض الرواة ان الذي حمله على قول هذا الشعر ، هو انه لما وصل الى القليب موضع مدفن قتلى قريش في بدر ، وكان ذاهباً الى المدينة يريد الدخول في الاسلام ، قال له بعض من كان معه من غلاظ الأكباد من المشركين : هل تدري ما في هذا القليب ؟ قال : لا . قيل : فيه شيبة وربيعة وفلان وفلان . فجدع أنف ناقته ، وشق ثوبه ، وبكى ، وعاد الى الطائف[1] .

وذكر ان أمية نال في بيتين من هذه القصيـــدة من أصحاب رسول الله ، ولذلك أهملها (ابن هشام) صاحب السيرة[2] . وذكر أيضاً ان النبي نهى عن روايتها[3] . ولكن الرواة رووها وحفظوها ودوّنوها في الكتب ، فكيف تجرؤوا على حفظها وتدوينها لو صح ان النبي نهى عن روايتها على نحو ما يزعمه أهـل الأخبار .

وأميّة مثل سائر المتألهين الآخرين من طبقة الحنفاء ، سافر الى الشام ، واتصل بأهلها ، وأوى الى الأديرة ورجال الدين يسأل منهم عما يهمه من مشكلات دينية وعما كان يجول في خاطره من عبادة قومه وحقيقة العالم . وكان تاجراً ، يذهب مع التجار في قوافلهم الى تلك الـــديار التي كانت في أيدي الروم . ثم إنه كان على ما يظهر من الروايات الـــتي وردت في ترجمته وسيرته قارئاً كاتباً ، قرأ الكتب ، ووقف عليها ، ومنها ومن اتصاله برجال الدين وبأهل الكتاب تكونت عنده فكرته عن الدين،وشكّه في عبادة قومه وفيما كانوا عليه من عقائد وعبادات. وقد بدا هذا التأثر في الكلمات والمصطلحات الأعجمية والغريبة المستعملة في شعره وفي الأمثلة والقصص المنتزع من الكتابين : للعهد القديم والعهد الجديد ومن موارد

---

١ ابن هشام (٢/٤٠١ وما بعدها) ، راجع القصيدة في (ص ٢٠) من ديوان أمية ، بيروت ١٩٣٤ ، بلوغ الارب (٢/٢٥٦) ، خزانة الادب (١/١١٩) ، الحيوان ، للجاحظ (٢/٣٢٠) ، الشعر والشعراء (١٧٦) ، البيان والتبيين (١/٢٩١) ، المسعودي ، مروج (١/٧٣) » محمد محيي الدين عبد الحميد « « ١٩٥٨ م » ، الاغاني (٣/١١٩ وما بعدها) ، خزانة الادب (٢/٣٩ وما بعدها) ، الاغاني (٤/ ١٢٢) ، الاصابة (١/١٣٤) ، (رقم ٥٥٢) .

٢ ابن هشام (٢/٤٠٥) .

٣ الاغاني (٤/١٢٣) « ذكر أمية بن أبي الصلت ونسبه وخبره » ، بروكلمان ، تاريخ الادب العربي (١/١١٣) .

أخرى عديدة من الموارد الشائعة المستعملة عند أهل الكتاب [1] .

وقد ورد في بعض الأخبار ان امية سافر مرة مع أبي سفيان والد معاوية في تجارة الى بلاد الشأم ، فكان كلما نزل منزلاً أخذ فيه سفراً له يقرأه على من معه ، كما كان يزور علماء النصارى ويتباحث معهم ، وكان يلبس ثوبين أسودين حينما يقابلهم [2] . ولم تذكر الرواية شيئاً عن السفر أو الأسفار التي كان يقرأ منها أمية ويشرحها لمن معه من التجار . وتذكر رواية أخرى انه كان قد بلغ مع (أبي سفيان) غزة أو (ايلياء) [3] .

ولأمية في هذا اليوم ديوان ضم أكثر ما نسب اليه من شعر . كما ان في بطون كتب الأدب والأخبار أشعاراً أخرى لم يرد لها ذكر في هذا الديوان . ومعظم شعره هو عن الدين والآخرة وعن الجنة والنار والحساب والكتاب ، وقد تضمن إشارات الى حوادث وقعت في ايامه ، أو في ايام قريبة من ايامه مثل قصة الفيل، كما تضمن بعض قصص الأنبياء ، ولتعرض شعره الى هذه النواحي نعت بشاعر الآخرة [4] .

ومما ذكره الأخباريون ورواة شعر أمية من أمثلة على استعماله للكلم الغريب ، انه استعمل (الساهور) للقمر ، وهي كلمة لا تعرفها العرب ، وانه ذكر (السلطيط) ، اسماً لله تعالى . وانه أطلق كلمة (التغرور) على الله تعالى في موضع آخر من شعره ، وانه سمّى السماء (صاقورة) و (حاقورة) وانه استعمل أشياء أخرى من هذا القبيل . ولولعه هذا باستعمال الغريب ، رفض علماء اللغة الاحتجاج بشعره [5] .

---

١ الاغاني (١٢١/٤ وما بعدها) « طبعة دار الكتب المصرية » ، « وكان يحكى في شعره قصص الانبياء ، ويأتي بالفاظ كثيرة لا تعرفها العرب ، يأخذها من الكتب المتقدمة ، أو بأحاديث من أحاديث أهل الكتاب » الشعر والشعراء (٣٦٩/١) .

٢ البداية والنهاية ، لابن كثير (٢٢٠/٢) ، الاغاني (١٢٣/٤ وما بعدها) ، (دار الكتب المصرية) .

٣ البداية والنهاية (٢٢٤/٢) .

٤ تاريخ الادب العربي ، لبروكلمن (١١٣/١) « الترجمة العربية » ، عيون الاخبار ، لابن قتيبة (٣٧٤/٦) ، الحيوان (٣٢١/٧) « عبد السلام محمد هارون » ، البيان والتبيين (٢٩١/١) .

٥ الاغاني (١٢١/٤ وما بعدها) ، شعراء النصرانية (٢١٩/٢) ، ديوان أمية فحول الشعراء ، « جمع بشير يموت » « بيروت ١٩٣٤ م » (ص ٥ وما بعدها) ، سيرة ابن هشام (٤٨/١) .

والساهور ، كلمة آرامية الأصل من أصل (سهرو) Sahro ، بمعنى القمر ، أي تماماً بالمعنى الوارد في شعر أمية[1] .

وهذا الشعر المنسوب الى أميـــة وغريبه خاصة مادة مهمة جداً تجب دراستها بعناية ، لمعرفة مبلغ صحة ما جاء في أخبار الرواة عن هذه الكلمات وعن أصولها ومواردها الأولى ، إن صح انها من أشعار تلك الأيام حقـــاً ، إذ ترشدنا أمثال هذه الدراسات الى معرفة المنابع التي استقى منها هذا الشاعر علمه وإلهامه ومدى تأثره وتأثر أمثاله من الجاهليين بالآراء والتيارات الفكرية التي كانت في مكة وفي خارج جزيرة العرب قبيل الاسلام .

وقد روى الأخباريون قصصاً عن التقاء أمية بالرهبان ، وعن توسمهم معـــالم النبوة فيه ، فكانوا يسألونه أسئلة تستخرج من أجوبتها في نظرهم معالم النبوة . فلما كانوا يقفون على الأجوبة ، يقولون له : كادت النبوة تكون فيه ، لولا بعض النقص في علاماتها عنده ، كما رووا قصصاً عن شق طيرين لقلب هذا الشاعر ، لتنظيفه ، وتهيئة النبوة فيه . ولكنها عندما وقفا عليه لم يجدا أن النبوة خلقت له[2]. وقد حاكى أهل الأخبار في قصصهم هذا ما رواه رجال السير عن علامات النبوة عند الرسول[3] . كذلك رووا أنه كان يتفرس في لغات الحيوانات ، فيعرف مـــا تقوله وما تريده ويقصه على الناس وانه كان يسخر الجنّ ، وكانت تطيعه، وأنه تنبأ بموته حينما نعب عليه الغراب[4] . فجعلوه بأخبارهم هذه في مرتبة تضاهي سليمان في علمه بمنطق الطير وبقية الحيوانات[5] . وذكر (ابن دريـد) : « كان بعض العلماء يقول له لولا النبي صلى الله عليه وسلم ، لادعت ثقيف أن أمية نبي ،لأنه قد دارس النصارى وقرأ معهم ، ودارس اليهود وكلّ الكتب قرأ »[6] .

وتشبه قصة تنظيف الطيرين لقلب أمية ، وهي القصة التي أشرت اليها قبـــل

---

١ غرائب اللغة العربية (ص ١٨٩) .
٢ الاغاني (٤/١٢٣ وما بعدها) ، شعراء النصرانية ، الجزء الثاني (ص ٢١٩) . ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء (٢٢٠ وما بعدها) « دار المعارف » .
٣ Sprenger, Leben, I, S. 119, M. cl. Huart, Le Livre de la Création et de L'histoire, I, pp. 55, 153, 155, 156, 190, 191, 195.
٤ البداية والنهاية (٢/٢٢٧ وما بعدها) .
٥ النمل ، الآية ١٥ وما بعدها .
٦ الاشتقاق (ص ١٨٤) .

قليل ، خبر (حليمة السعدية) مرضعة الرسول لصدر النبي . ورواة قصة شق صدر أمية وتنظيف قلبه هم من أهل الطائف ، ويرجعون سند قصتهم الى أخت أمية المسماة (الفارعة) ، « وكانت ذات لُبّ وعقل وجمال ، وكـان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم بها معجباً »[1] ، وقد وفدت عليه ، فلما سألها عن شعر أخيها كما يقول الرواة ، قصت عليه قصة الطيرين ، كما قصت عليه قصة وفاته، فقال رسول الله : « ان مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها »[2].

ويشير القصص الوارد عن التقاء (أمية) بالأحبار وبالرهبان وباتصاله بهم ، الى أن امية كان يرجو ان يكون نبياً ، وأنه كان يعتقد بقرب ظهور نبي وتأمله أن يكون هو ذلك النبي المرتجى :

ألا نبيّ منـا فيخـبرنا ما بعد غايتنا من رأس مجرانا[3]

وقد كسف وتألم كثيراً وأكل الحسد قلبه ، حين فلت الأمر منه ، اذ سمع بإعلان الرسول رسالته ، ودعوة الناس الى دين الله ، الذي كان أمية نفسه يدعو اليه . وقد ورد أنه لما سمع بنبوة الرسول قال : « إنما كنت أرجو ان اكونه»[4].

ويروي أهل الأخبار أن امية كان قد مات وهو معتقد بأن الحنيفيـة حق إذ رووا أنه قال في مرض موته ، « قد دنا أجلي ، وهذه المرضة فيها منيتي وأنا أعلم ان الحنيفية حق ، ولكن الشك يداخلني في محمد . وقال : لا برىء فأعتذر ولا قوي فأنتصر » .

وفي جملة ما رووه عنه ، انه عرف مجيء يومه من نعيب غراب ، نعب على مقربة منه . فحدث القوم بما سمعه من الغراب ، وكان يعرف منطقه ، وقال لهم

---

١ البداية والنهاية (٢/٢٢٤ وما بعدها) .

٢ البداية والنهاية (٢/٢٢٤ وما بعدها) ، تهذيب ابن عساكر (٣/١٢٧) ، مروج (١/٥٧ وما بعدها) ، الطبرسي ، مجمع (٧/٦٣ وما بعدها) ، الطبري ، تفسير (٩/١٢١) « طبعة البابي » ، تفسير ابن كثير (٢/٢٦٤) ، شرح الشهاب عـلى البيضاوي (٤/٢٣٦) .

٣ البداية والنهاية (٢/٢٢٧) تهذيب ابن عساكر (٣/١٢٧) ، تأريخ الخميس ، (١/٤١٢) .

٤ الاغاني (٤/١٢٣ وما بعدها) .

انه سيموت وذكر علامة ذلك ، فكان ان مات على نحو ما قال للقوم[1] . وذكر أيضاً انه لما كان على فراش الموت محتضراً أفاق عدة مرات ، وكان يتلو في كل مرة : « لبيكما لبيكما ، ها أنذا لديكما » ، ثم يتلو هذا الكلام بكلام آخر فيه توسل وتضرع الى الإلـه ، الى ان أفاق للمرة الأخيرة ، فقال شعراً بيّن فيه ان الموت أمر لا بد منه ، وانه هالك في هذه المرة لا محالة ، ثم هلك ، دون ان يؤمن بالرسول[2] .

وهذا القصص الوارد عن أمية ، هو – بالطبـع – من القصص المصنوع الموضوع ، مثل كثير من أخباره وأخبار غيره ، قص على ذوي القلوب الطيبة من الرواة والأخباريين ، فأخذوه ونقلوه كما نقلوا مـا شاء الله من الاسرائيليات والأساطير ، وروي على انه مما كان يعلمه الأحبار والرهبان والخاصة من أهـل الكتاب .

ولا أستبعد ان يكون هذا القصص قد ظهر في ايام الحجـاج عصبية وتقرباً اليه ، فقد كان الحجاج من ثقيف ، وكان أمية من ثقيف كذلك . وقد أنتج الوضاعون في ايامه شيئاً كثيراً من الأخبـار في قبيلة ثقيف ، كما أنتجوا شيئاً في ذمها وفي ذم رجالها نكاية به .

وقد يكون في قول (الحجّاج) حين سئل عن شعر أمية ، شيء من التوجع والتألم أو المبالغة في تقديره حين قال : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية ، وكذلك اندراسُ الكلام » . وقد يكون كلام الحجاج غير ذلك ، لو كان أمية من قبيلة أخرى .

ونحن نستطيع ادخال قول من قال عن (أمية) « قيل انه كان نبياً »[3] في جملة هذه الدعاوى التي وضعت في هذا العهد ، للرفع من شأن (ثقيف) ومن الرد على المتهجمين عليها الطاعنين حتى في نسبها الذين جعلوا (ثقيفاً) من بقية (ثمود) ، وأيدوا قولهم هـذا بحديث زعموا ان الرسول قاله : « ثقيف من

---

١ البداية والنهاية (٢/٢٢٧) .
٢ الاغاني (٤/١٢٥ وما بعدها) ، ابن سلام ، طبقات فحول (ص ٢٢٠ وما بعدها)، الاصابة (١/١٣٤) ، (رقم ٥٥٢) .
٣ تهذيب ابن عساكر (٣/١١٥) .

ثمود »[1] ، وجعلوه من عبد لأبي رغال ، وأبو رغال نفسه الذي نسب عبده اليه ، أي جد ثقيف ، هو في نظر العرب وقريش خاصة سبّة[2] .

ويذكرون عنه انه بعد ان صبأ عن قومه وتحنف ، لبس المسوح على زي المترهبين الزاهدين في هذه الدنيا ، ورافق الكتب ونظر فيها ، ليستلهم منها العلم والحكمة والرأي الصحيح ، ثم حرّم الخمر على نفسه مثل بقية المتألهين ، وتجنب الأصنام ، وصام ، والتمس الدين ، وذكر ابراهيم واسماعيل ، وانه كان أول من أشاع بين قريش افتتاح الكتب والمعاهدات والمراسلات بجملة : «باسمك اللهم» ، وهي الجملة التي نسخت في الاسلام بجملة : « بسم الله الرحمن الرحيم »[3] .

ويذكر أهل الأخبار ان امية أخذ جملة : « باسمك اللهم » من شيخ كان منطوياً على نفسه في برية نائية ، وذلك حينما ألح عليه قوم كانوا معه من قريش في عير لهم ، كانت قد نفرت ، بأن يجد طريقة لطرد حيّة كانت تظهر بين ابلهم فتنفرها ، فذهب الى ذلك الشيخ واستشاره في طريقة تبعد عنهم أذى تلك الحيّة ، فأشار عليه باستعمال تلك الجملة ، فهربت الحيّة ونفرت منهم ، وقد كان سبب ظهور تلك الحيّة كما يذكر أهل الأخبار ، هو أن رجلاً من القوم هو : (حرب بن أمية بن عبد شمس) كان قد قتل حيّة فقررت زميلتها الانتقام من قتلتها ، فقتلته الجن انتقاماً منه بثأر تلك الحيّة . وهربت الجن عند سماعها تلك الجملة . وإليه أشير كما يقول أهل الأخبار بقولهم :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

فحرب هذا المذكور في هذا البيت ، هو حرب بن أمية ، وأما الشيخ فكان رجلاً من الجن[4] .

---

١ الاغاني (٣٠٧/٤) « دار الكتب » .
٢ الاغاني (٣٠٢/٤) « دار الكتب » .
٣ المسعودي ، مروج (٥٧/١ وما بعدها) ، ديوان ، أمية « المقدمة » لبشير يموت « بيروت ١٩٣٤ » ، ابن خلدون (١٧٧/١ وما بعدها) ، (بيروت ١٩٦١ م) ، التنبيه والاشراف (٣٥٩) ، (مكتبة الخياط) .
٤ الحيوان للدميري (١٩٥/٢) ، الاغاني (١٢٢/٤ وما بعدها) ، (دار الكتب المصرية) .

ويُذكر أنه لم يكن يرتضي من الأديان غير دين الحنيفية ديناً . وأنه قال ذلك في شعر له :

كل دين يوم القيامة عند الله ، إلاّ دين الحنيفية ، زور[1]

وأنه كان يعظم الله في شعره ويكبره ويحمده ، ويرى أنه إلـه واحد لا شريك له ، وأن من يشرك به أحداً فقد ظلم نفسه :

الحمـــد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما[2]

وهناك من يروي أن (النابغة الجعدي)، كان يدعي أن هذا البيت وما بعده هو من نظمه . قال ذلك أمام (الحسن بن علي بن أبي طالب)[3] .

ويروى ان النبي كان يسمع شعر أمية ، وان (الشريد بن سويد) (الشريد ابن عمرو) الثقفي ، كان ينشد له شيئاً منه ، في اثناء أحد أسفاره . فكان كلما أنشد له شيئاً منه ، طلب منه المزيد ، حتى اذا ما أنشده مئة بيت ، قال النبي له : كاد ليسلم ، أو كاد ليسلم في شعره . وذكر ان الرسول قال في حديث له عنه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه[4] . وانه لما سمع شعره في الدين والحنيفية ومطلعه :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربي ومسّانا

قال : « إن كاد أمية ليسلم »[5] .

---

١ الاغاني (٣/١١٢) ، البغدادي ، خزانة الادب (٢/٣٩) ، شيخو ، شعـــراء النصرانية ، الجزء النـــاني (ص ٢١٩) ، ابن هشام ، الســـيرة (١/٤٠) ، (٢/٩٨٢) ، الاغاني (٤/١٢٣) « دار الكتب » ، الاصابة (١/١٣٠) « مطبعـة السعادة » .

٢ المسعودي ، مروج (١/٧٠) .

٣ طبقات ابن سلام (١٠٦ وما بعدها) ، الاغاني (٥/١٠) .

٤ صحيح مسلم « كتاب الشعر » ، (٧/٤٨) « طبعة محمد علي صبيح » ، طبقات ابن سعد : (٥/٣٧٦) ، « الشريد بن سويد » « الرشيد بن سويد » ، بلـــوغ الارب (٢/٢٥٣ وما بعدها) ، المعارف ، لابن قتيبة (٢٨) ، المزهر (٢/٣٠٩) ، خزانة الادب (١/٢٢٧) ، ابن سعد (٥/٣٧٦) ، الشعر والشعراء (١/٣٦٩) ، الاصابة (١/١٣٤) ، (رقم ٥٥٢) .

٥ الاغاني (٤/١٣٢ وما بعدها) « دار الثقافة » ، شرح الشهاب على البيضـــاوي (٤/٢٣٦) ، تفسير ابن كثير (٢/٢٦٤) ، ديوان المعاني ، لابي هلال العسكري (١/٢٦) .

وروي عن (ابن عباس) ، ان الرسول لما سمع شعر (أمية) :

زحل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد[1]

قال : صدق أمية .

وفي رواية أنه : « كان قد قرأ الكتب القديمة ، وعلم أن الله تعالى مرسل رسولاً ، فرجا أن يكون هو ذلك الرسول ، فاتفق أن خرج الى البحرين ، وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقام هناك ثماني سنين . ثم قدم ، فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في جماعة من أصحابة ، فدعاه الى الاسلام ، وقرأ عليه سورة يس ، حتى اذا فرغ منها ، وثب أمية يجر رجليه ، فتبعته قريش تقول : ما تقول يا أمية ؟ فقال : أشهد انه على الحق . قالوا : فهل نتبعه ؟ قال : حتى انظر في امره . فخرج الى الشام ، وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بها ، ترك الاسلام . وقال : لو كان نبياً ما قتل ذوي قرابته فذهب الى الطائف ومات »[2] .

وفي هذه الرواية المنسوبة الى الزهري ، عن سماع أمية بن أبي الصلت بنبوة النبي وهو في البحرين ، ثم مجيئه الى مكة والتقائه بالرسول ومحاجته له في ظل الكعبة ، ثم انكسافه وتراجعه وذهابه الى الشام ، ثم عودته منها[3] ، تكلف ظاهر ، وفي تفاصيلها ما يناقض بعضه بعضاً .

وورد في رواية أخرى ، ان أمية بن أبي الصلت قدم المدينة فقال للنبي : ما هذا الذي جئت به ؟ فقال الرسول : الحنيفية دين ابراهيم . قال : فأنا عليها . فقال عليه الصلاة والسلام لست عليها ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها . فقال : أمات الله تعالى الكاذب منا طريداً وحيداً ، ثم خرج الى الشأم ، وأرسل الى المنافقين أن استعدوا للسلاح . ثم أتى قيصر ، وطلب منه جنداً ، ليخرج النبي

---

١ الاصابة (١/١٢٩) ، الاصابة (١/١٣٤) ، (رقم ٥٥٢) . (القاهرة ١٩٣٩ م) .

٢ روح المعاني (٩/١١٢ وما بعدها) ، تأريخ الخميس ، للدياربكري (١/٤١٢) ، مجمع البيان في تفسير القرآن ، للطبرسي (٧/٦٣ وما بعدها) ، (بيروت ١٩٥٧ م) .

٣ راجع البداية والنهاية (٢/٢٢٠) .

من المدينة ، فمات بالشأم طريداً وحيداً . وهي قصة ينسب وقوعها الى (أبي عامر) الراهب ، كما سبق أن تحدثت عن ذلك[1] .

وتخالف هذه الرواية الروايات المألوفة الواردة الينا عن وفاة (أمية) بالطائف . وتزعم احدى الروايات ، ان أمية كان قد أخذ ابنتيه وهرب بهما الى أقصى اليمن ، وذلك حين بعث النبي . ثم عاد الى الطائف ، فبينما هو يشرب مع اخوان له في قصر بالطائف ، إذ سقط غراب على شرفة في القصر فنعب، وأدرك أمية انه ميت ، لأنه عرف منطق الغراب ، وحدّث القوم بذلك في قصة مفصلة تجدها في الكتب ثم مات[2] . وقصة الشرب هذه تناقض ما يذكر عنه أهل الأخبار من انه كان لا يقترب من الخمر ، ومن انه كان قد حرمها على نفسه، شأنه في ذلك شأن بقية الأحناف . كذلك يناقض خبر تحريمه الخمر على نفسه،خبر آخر ، خلاصته انه كان يشرب يوماً مع عبدالله بن جدعان ، فأخذ الشراب برأس (ابن جدعان) ، وأصاب عين أمية ، فلما كان اليوم الثاني وجلس أيضاً للشرب معه ، سأل (عبدالله) أمية عن سبب الألم البادي على عينه ، فلما أخبره بأنه كان هو سببه ، ترك (ابن جدعان) الخمر استحياء مما فعله وقال شعراً في سبب تركه الخمر . ويقول أهل الأخبار : « ما مات أحد من كبراء قريش في الجاهلية ، إلا ترك الخمر استحياء مما فيه من الدنس »[3] .

وتؤيد قصة ذهاب (أمية) الى اليمن وسكنه أمداً هناك قصة ينتهي سندها بـ (أبي سفيان) ، خلاصتها انه كان قد ذهب في ركب من قريش الى اليمن في تجارة ، فمرّ بأمية ، وقال له كالمستهزىء به : يا أمية قد خرج النبي الذي كنت تنعته ؟ فأجابه أمية : اما انه حق فاتبعه . وقال له قولاً يتنبأ فيه بمصير أبي سفيان وكيف سيؤتى به الى الرسول ، فيحكم فيه كما يريد[4] . ففي هذه القصة توكيد بخروج أمية الى اليمن حين بعث الرسول وبمكوثه زماناً هناك .

وذكر أنه الشخص الذي نزلت في حقه الآية : « واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه

---

١ روح المعاني (١١١/٩) ، تفسير الطبرسي (٥٠٠/٣) ، (طبعة طهران) .
٢ الاغاني (١٣٠/٤ وما بعدها) ، الاصابة (١٢٩/١) .
٣ الاغاني (٣٣٢/٨) .
٤ البداية والنهاية (٢٢٤/٢) .

آياتنا ، فانسلخ منها »[1] . وهي آية قيل أيضاً إنها نزلت في (بلعام بن باعور) (بلعم بن ابر) ، (بلعام بن باعرا) ، أو في زوج البسوس ، أو في (النعمان ابن صيفي الراهب)[2] .

وأمية كأكثر الشعراء له شعر في المدح وله تعريض . وأكثر مدحه في (ابن جدعان) من أجواد العرب المعروفين المشهورين في الجاهلية[3] . وهو في المدح او في الرثاء او في كل مناسبة اخرى ، مستعمل لكلمات ذات صلة بالدين وبالأفكار الدينية ولمصطلحات لا ترد إلا نادراً في الأشعار المنسوبة الى الشعراء الجاهليين ، مما يدل على غلبة التفكير الديني عليه ، وتأثير ما قرأه او أخذه من غير العرب فيه. سئل الأصمعي عن شعر أمية ، فقال : « ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة وذهب عنترة بعامة ذكر الحرب،وذهب عمر بن أبي ربيعة بعامة ذكر الشباب »[4].

ووالد (أمية) ، هو (عبدالله بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي) او (ربيعة ابن وهب بن علاج بن أبي سلمة) الثقفي على رواية (الزبيري)[5] . أما امه فهي (رقيّة بنت عبد شمس بن عبد مناف) . وقد كان والده شاعراً . ذكر انه مدح (سيف بن ذي يزن)[6] .

ومن الرواة من ينسب القصيدة التي تنسب الى والد أمية ، والتي هي في مدح (سيف بن ذي يزن) ، الى امية نفسه . وفي هذه القصيدة إشارة الى ذهاب (سيف بن ذي يزن) الى هرقل ، فلما لم يجد منه أية مساعدة أو اهتمام ، عافه ، وذهب الى كسرى ، حيث وجد منه مساعدة ، فجاءت اليه بعد سنين

---

١ الاعراف ، الآية ١٧٥ ، الاغاني (٤/١٢٥ وما بعدها) « بيروت » ، تفسير الطبري (٩/٨٢ وما بعدها) .

٢ روح المعاني (٩/١١١) ، تفسير الطبرسي (٣/٤٩٩ وما بعدها) .

٣ المحبر (ص ١٣٨) ، ديوان آمية بن أبي الصلت : تحقيق « فريدرش شولتس » (Friedrich Schulthetz) ، المطبوع بمدينة « لايبزك » سنة ١٩١١ ، وكذلك ديوانه المطبوع ببيروت سنة ١٩٣٤ م . جمع بشير يموت ، التبريزي ، شرح ديوان الحماسة (٤/١٤٥) ، الاغاني (٨/٣٢٧) ، تهذيب ابن عساكر (٣/ ١٢٣) ، ابن هشام ، (٣/١٤١) .

٤ الاصابة (١/١٢٩) ، الاغاني (٤/١٣٠ وما بعدها) .

٥ نسب قريش (٩٨) .

٦ الاغاني (٤/١٢٠ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (١/٣٦٩) ، (بيروت) ، تهذيب ابن عساكر (٣/١١٥) ، اليعقوبي (١/٢٢) ، الاغاني (٤/١٢٠ وما بعدها) ، الازرقي ، تاريخ مكة (١/٩٣) ، جمهرة الانساب (٢٥٧) .

من تعب ومواظبة [1] .

وينسب الى أمية شعر ، ذكر انه افتخر فيه بـ (نزار) وبـ (معـد) . وبقبيلة (إياد) ، حيث نعتهم بـ (قومي إياد) [2] .

ويتلخص ما جاء في شعر هذا الشاعر من عقائد وآراء في الاعتقاد بوجود إلـه واحد ، خلق الكون وسوّاه وعدله ، وأرسى الجبال على الأرض، وأنبت النبات فيها ، وهو الذي يحيي ويميت،ثم يبعث الناس بعد الموت ويحاسبهم على أعمالهم ، وليجازيهم بما كسبت أيديهم ، فريق في الجنة وفريق في النار ، يساق المجرمون عراة الى ذات المقامع والنكال مكبلين بالسلاسل الطويلة وبالأغلال ، ثم يلقى بهم في النار يصلونها يوم الدين ، يبقون فيها معذبين بهـا ، ليسوا بميتين ، لأن في الموت راحة لهم ، بل قضى الله ان يمكثوا فيها خالدين أبداً [3] .

أما المتقون ، فإنهم بدار صدق ناعمون تحت الظلال ، لهم ما يشتهون ، فيها عسل ولبن وخمر وقمح ورطب وتفاح ورمان وتين وماء بارد عذب سليم ، وفيها كل ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين ، وحور لا يرين الشمس فيها ، نواعم في الأرائك قاصرات ، على سرر ترى متقابلات ، عليهم سندس وجيـاد رَيْط وديباج ، حلّوا بأساور من لجين ومن ذهب وعسجد كريم ، لا لغو فيها ولا تأثيم ، ولا غول ولا فيها مُليم ، وكأس لا تصدع شاربيها ، يلذّ بحسن رؤيتها النديم ، تحتهم نمارق من دمقس ، فلا أحد يرى فيهم سئيم .

وللوقوف على آراء (أمية) ، وعلى معتقداته الدينية يجب الرجوع بالطبع الى أشعاره وما نسب اليه من كلام . ففي هذا التراث الذي تغلب عليه النزعة الدينية والحكمية ، تتمثل آراء ذلك الشاعر الجاهلي الذي أدرك أوائل المبعث ، وهي آراء قريبة جداً من الاسلام ، وبعضها يكاد يكون قولاً اسلاميـاً في لفظه وفي معناه مسبوكاً في شعر . وفي هذا الشعر قصص الرسل والأنبيـاء : آدم ونوح وقصة

---

١ كتاب التيجان ، لوهب ، (٣٠٧) ، الشعراء والشعراء ، لابن قتيبه (٣٦٩/١) ، بروكلمان (١١٤/١) ، Schultheso Orient. Studien, I, 73.

٢ الاغاني (١٢٠/٤) ، (٣٢٧/٨ وما بعدها) ، شعراء النصرانية (٢٣٤/٢) .

٣ وسيق المجرمون وهم عراة الى ذات المقامع والنكال
ديوان أمية (٤٩) .
جهنم تلك لا تبقى بغيا وعدن لا يطالعها رجيم
ديوان أمية (٥٣) ، (بشير يموت) .

طوفانه ، والغراب والحمامة [1] ، وقصة ذي القرنين وبلقيس وحكاية الهدهد [2] ، وقصة ابراهيم وتقديم ابنه للذبح،وداوود ، وفرعون ، وموسى ، وابن عاد [3] . وعيسى وأمه مريم وكيفية حملها به ، فوصف ذلك بانياً وصفه على نحو ما جاء في القرآن الكريم عن تكوّن عيسى ، مضيفاً الى ذلك زيادات في حديث مريم مع الملائكة وجواب الملائكة لها [4] . كما أورد في الشعر قصة (لوط أخي سدوم) [5] . وهي من القصص المذكور في التوراة ، وأشياء أخرى عديدة من هذا القبيل [6] .

وفي أكثر ما نسب الى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات دينية ووصف ليوم القيامة والجنة والنار ، تشابه كبير وتطابق في الرأي جملة وتفصيلاً لما ورد عنها في القرآن الكريم . بل نجد في شعر أمية استخداماً لألفاظ وتراكيب واردة في كتاب الله وفي الحديث النبوي ، فكيف وقع ذلك ؟ وكيف حدث هذا التشابه؟ هل حدث ذلك على سبيل الاتفاق او ان امية اخذ مادته من القرآن الكريم ، او كان العكس ، اي ان القرآن الكريم هو الذي أخذ من شعر امية فظهرت الأفكار والألفاظ التي استعملها امية في آيات الله وسوره ؟ فكتاب الله اذن هو صدى وترديد لآراء ذلك الشاعر المتأله ، او ان هذا التشابه مردّه شيء آخر هو تشابه الدعوتين واتفاقهما في العقيدة والرأي ، او اعتماد الاثنين على مورد أقدم ، هما الكتابان المقدسان : التوراة والانجيل ، وما لهما من شروح وتفاسير ، او كتب او موارد عربية قديمة كانت معروفة ثم بادت وبقي أثرها في القرآن الكريم وفي شعر أمية بن ابي الصلت ، او ان كل شيء من هذا الذي نذكره ونفترضه

---

١ جزى الله الاجل المرء نوحا جزاء البر ليس له كذاب
ديوان أمية (١٨ وما بعدها ، ٥٨) ، (بشير يموت) الحيوان ، للجاحظ (٢/ ١١٧) ، البدء والتاريخ (١/٢٤) .

٢ قد كان ذو القرنين قبلي مسلما ملكا علا في الارض غير معبد
من قبله بلقيس كانت عمتي حتى تقضى ملكها بالهدهد
ديوان أمية (ص ٢٦) ، (بشير يموت) .

٣ حي داوود وابن عاد وموسى وقريع بنيانه بالثقال
انني زارد الحديد على النا س دروعا سوابغ الاذيال
ديوان أمية (٥٠ وما بعدها) ، (بشير يموت) .

٤ وفي دينكم من رب مريم آية منبئة بالعبد عيسى بن مريم
ديوان أمية (٥٨) ، (بشير يموت) .

٥ ثم لوط أخو سدوم أتاها اذ أتاها برشدها وهداها
ديوان أمية (٦٩) ، (بشير يموت) .

٦ راجع التوراة ، ومادة (Lot) في معجمات التوراة .

افتراضاً لم يقع ، وان ما وقع ونشاهده ، سببه ان هذا الشعر وضع على لسان امية في الاسلام ، وان واضعيه حاكوا في ذلك ما جاء في القرآن الكريم فحدث لهذا السبب هذا التشابه .

أما الاحتمال الأول ، وهو فرض أخذ امية من القرآن ، فهو احتمال إن قلنا بجوازه ووقوعه ، وجب حصر هذا الجواز في مدة معينة ، وفي فترة محدودة تبتدىء بمبعث الرسول ، وتنتهي في السنة التاسعة من الهجرة ، وهي سنة وفاة أمية بن أبي الصلت . اما ما قبل المبعث ، فلا يمكن بالطبع ان يكون امية قد اقتبس من القرآن ، لأنه لم يكن منزلاً يومئذ ، وأما ما بعد السنة التاسعة ، فلا يمكن أن يكون قد اقتبس منه أيضاً ، لأنه لم يكن حياً ، فلم يشهد بقية الوحي. ولن يكون هذا الفرض مقبولاً معقولاً في هذه الحالة ،إلا اذا أثبتنا بصورة جازمة ان شعر اميه الموافق لمبادىء الاسلام ولما جاء في القرآن قد نظم في هذه المدة المذكورة ، اي بين المبعث والسنة التاسعة من الهجرة ، وأن امية كان يتتبع نزول الوحي ، ويجمعه،وانه كان يملك نسخة مما نزل على الرسول ، رجع اليها واقتبس منها ، وإلا سقط العرض . فإذا أثبتنا ذلك وثبتنا تأريخ نظم هذا الشعر، أمكنت المقابلة عندئذ بين شعر أميّة وما جاء في معناه وفي موضوعه من آيات نزلت بين ابتداء نزول الوحي على الرسول وبين السنة التاسعة ، أما الآيات التي نزلت بعد هذه السنة ، فلا تكون شاهداً على أخذ أميّة منها : لأنه كان قد توفي في السنة التاسعة ، فلا يقع هذا الافتراض .

ولكن من في استطاعته تثبيت تواريخ شعر أمية وتعيينه ، وتعيين أوقات نظمه؟ إن في استطاعتنا تعيين بعضه من مثل الشعر الذي قاله في مدح عبدالله بن جُدعان او معركة بدر . ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك بالغالبية منه ، وهي غالبية لم يتطرق الرواة الى ذكر المناسبات التي قيلت فيها . ثم إن بعض هذا الكثير مدسوس عليه ، مروي لغيره ، وبعضه إسلامي ، فيه مصطلحات لم تعرف إلاّ في الإسلام ، فليس من الممكن الحكم على آراء أمية الممثلة في شعره هذا بهذه الطريقة . ثم إن أحداً من الرواة لم يذكر ان امية كان ينتحل معاني القرآن الكريم، وينسبها الى نفسه . ولو كان قد فعل ، لما سكت المسلمون عن ذلك ، ولكان الرسول أول الفاضحين له .

بقي لدينا افتراض آخر ـ هو أخذ القرآن الكريم من أميـــة ـ وهو افتراض ليس من الممكن تصوره ، فعلى قائله اثبات أن شعر أمية في هذا الباب هو أقدم عهداً من القرآن الكريم ، وتلك قضية لا يمكن اثباتها أبداً . ثم إن قريشاً ومن لف لفها ممن عارض الرسول لو كانوا يعلمون ذلك ويعرفونه ، لما سكتوا عنه ، ولقالوا له انك تأخذ من أمية ، كما قالوا له : انك تتعلم من غلام نصراني كان مقيماً بمكة ، واليه اشير في القرآن الكريم بقوله : « ولقد نعلم انهم يقولون : انما يعلمه بشر ، لسانُ الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين »[1]. ولقد أشار المفسرون الى اسم الغلام ، كما سأتحدث عن ذلك في الفصل الخاص بالنصرانية عند العرب قبل الاسلام ، ولم يشيروا الى أمية بن أبـي الصلت[2] . ثم إن أمية نفسه لو كان يعلم ذلك او يظن ان محمداً انما اخذ منه ، لما سكت عنه وهو خصم له ، منافس عنيد ، أراد ان تكون النبوة له ، وإذا بها عند شخص آخر ينزل الوحي عليه ، ثم يتبعه الناس فيؤمنون بدعوته . أما هو فلا يتبعه أحد. هل يعقل سكوت أمية لو كان قد وجد اي ظن وإن كان بعيداً يفيد ان الرسول قد اخذ فكرة منه ، او من المورد الذي اخذ أميـــة نفسه منه ؟ لو كان شَعَر بذلك ، لنادى به حتماً ، ولأعلن للناس انه هو ومحمد أخذا من منبع واحد ، وان محمداً أخذ منه ، فليس له من الدعوة شيء ، ولكانت قريش وثقيف اول القائلين بهذا القول والمنادين به .

نعم ، لقد ورد في الحديث ، كما قلت قبل قليل ، ان الشريد بن سويد كان قد أنشد الرسول شعر أمية ، وانه كان كلما أنشده شيئاً منه طلب منـه المزيد ، حتى إذا ما أنشده مئة بيت ، قال له الرسول : آمن شعره وكفـــر قلبه ، او آمن لسانه وكفر قلبه ، ولكننا هنا بحاجة الى تثبيت تأريخ هذا الإنشاد ، وإثبات صحة الرواية وتدقيق رجال السند ، لاثبات ان ما أنشد لم يكن قد نزل في مثله الوحي .

وممن ذهب الى افتراض أخذ الرسول من أمية من المستشرقين (كليمان هوار) و (بور) Power . زعم (بور) انه حيث يوجد تشابه بين شعر أمية والقرآن

---

١ النحل ، الآية ١٠٣ .
٢ سيرة ابن هشام (١/٤٢٠) .

الكريم ، فإن ذلك يدل على ان الرسول أخذ من (أمية) ، لأن أمية أقدم من الرسول[1] . وهذا الافتراض مقبول كما لو أثبتنا ان هذا النظم شعر أصيل صحيح، وانه نظم قبل نزول مشابهه في القرآن الكريم ، وانه لم يضف اليه في الاسلام . فإن أثبتنا انه له ، جاز لها مثل هذا الادعاء .

وأما الرأي الثالث – وأعني به رأي من يرجع التشابه بين شعر امية وما ورد من مثل معانيه في القرآن الكريم الى أخذ الاثنين من التوراة والانجيل وتفاسيرهما، والى بعض (الصحف) و (المجلات) التي أشير الى وجودها عند العرب – فهو رأي قديم ، وليس بجديد . رأي قيل عن الوحي كله ، لا عن القرآن وشعر امية او غير امية ، قبل ان يخلق المستشرقون بأكثر من ١٣٠٠ سنة ، فقد زُعم « ان النبي يتعلم من غلام نصراني اسمه جبر !! » . وقد أشير الى هذا الزعم في كتاب الله ، وجاء الرد عليه في قوله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون ، إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » . فلم يُخْفِ القرآن الكريم ذلك الطعن والمغمز ، ولم يتجاهل المفسرون اسم من قيل إنه كان يعلمه ، فذكروا جبراً هذا ، وكان غلاماً مقيماً بمكة ، وقال بعضهم بل هو رجل رومي اسمه غير ذلك .

ولو كان الرسول وأمية قد أخذا من منهل واحد ، واستقيا من مورد واحد، لما سكتت قريش عن القول به ، ولما سكت أمية نفسه وهو الغاضب الحاقد على الرسول عن الجهر به . وكيف يعقل سكوته عن هذا ، وهو أمر مهم جداً بالنسبة اليه . وسيف يحارب به الإسلام؟ولما سكت مسيلمة ومن كان على شاكلته من المتنبئين من الإشارة اليه في أثناء حروب الردّة ، وقد كانت فرصة سانحة لإظهار هذه المقالة . ولما سكت (يوحنا الدمشقي) وأمثاله من التلميح الى ذلك، وقد لمح بأمور كثيرة في طعنه على الإسلام .

ثم إنّ هذ التشابه ، على ما يتبين من نقده وتمحيصه ، ليس من نوع ما يحصل عن أخذ شخصين مستقلين من مورد معين ، إنما هو من قبيل ما يحدث من اعتماد أحد الشخصين على الآخر ، بدليل ورود أمور في القرآن الكريم ،

---

١ ديوان أمية (ص ٧) ، « المقدمة الالمانية » « بحقيق فردرش شولثيس » ، بروكلمن Cl. Huart, JA. X, Vol., IV, 1904, p. 125. • (١١٣/١)

لم ترد في التوراة ولا في الانجيل ، ولكنها وردت في شعر امية ، وبدليل ورود أكثر قصص الأنبياء والآراء والمعتقدات في شعر أمية على شكل إسلامي ، لا على النحو الوارد عند أهل الكتاب . واستعمال هذا الشعر لجمل وألفاظ وتراكيب اسلامية واردة في القرآن الكريم وفي الحديث لا في الكتب السماوية المذكورة . فلو كان مردّ هذا التشابه الأخذ من مورد واحد ، لوجب انحصار هذا التشابه في الأمور المشتركة التي ترد في الكتب المقدسة : التوراة والانجيل والقرآن ، وفي شعر أمية حسب ، لا في المسائل التي ترد في شعر أمية وفي القرآن الكريم ، ولا ترد في الكتابين المقدسين أو في الكتب الأخرى .

ثم إن المقابلة بين نصين لمعرفة صلة احدهما بالآخر،وأخذ احدهما من الآخر ، تستوجب التأكد من صحة نسبة هذا الشعر الى أمية . ففي هذا الشعر مقدار لا يمكن ان يشك في وضعه وصنعه ، ومقدار نص العلماء نصاً على انه لغيره ، وهم انما ذكروه في شعر أمية ، لأن بعض اهل الأخبار نسبه اليه . ولذلك استدركوا هذا الخبر ، بالاشارة الى اسم قائله الصحيح . فلم يبق من هذا الشعر ما يصلح للمقابلة غير القليل منه ، وهو القليل الذي له صلة بعقيدة ودين . وهذا القليل هو ، في الغالب ايضاً ، تبع لما ورد في القرآن وحده ، لا لما ورد في الكتابين المقدسين . ولما كان القرآن محفوظاً ثابتاً ، فلم يرتق اليه الشك . اما شعر أمية ، فليس كذلك ، وهو غير معروف من حيث تعيين تأريخ النظم . فهذه المقابلة إن جازت ، فانها تكون حجة على القائلين بالرأي المذكور ، لا لهم . وقد كان عليهم ان يثبتوا أولاً اثباتاً قاطعاً صحة رأيهم في أصالة هذا الشعر ، لا ان يفترضوا مقدماً انه شعر أصيل صحيح ، وان يذهبوا رأساً الى انه هو والقرآن الكريم من وقت واحد ، بل انه على حد قول بعضهم أقدم منه ، فكتاب الله منتزع منه .

وممن قال باحتمال أخذ القرآن وأمية من مورد مشترك واحد،(فردرش شولثيس) Friedrich Schulthetz ناشر ديوان أمية. وقد زعم أيضاً احتمال أخذ أمية من بعض آيات الله التي كانت مُنزلة يومئذ ، ونظمها في شعره . استند في زعمه القائل باقتباس الرسول من مورد مشترك الى ورود بعض كلمات في القرآن الكريم وفي الحديث وفي كتب السير ، يفهم منها على زعمه ان الرسول كان قارئاً كاتباً ، ولكنه لم يشترط في هذه المؤلفات كونها الإنجيل والتوراة ، بل ذهب الى انها

(مجلة) و (صحيفة) ، تتضمن أحاديث وتفاسير وقصصاً دينياً قديماً[1] . أما دليله ، فافتراض واحتمال ، وليس له غير هذين . ولا يقوم علم إلا على دليل ملموس .

أما أنا ، فأرى ان مردّ هذا التشابه والاتفاق الى الصنعة والافتعال . لقد كان أمية شاعراً ، ما في ذلك شك ، لاجماع الرواة على القول به . وقد كان ثائراً على قومه ، ناقماً عليهم ، لتعبدهم للأوثان . وقد كان على شيء من التوحيد والمعرفة باليهودية والنصرانية ، ولكني لا أظن أنه كان واقفاً على كل التفاصيل المذكورة في القرآن وفي الحديث من العرش والكرسي وعن الله وملائكته وعن القيامة والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب ونحو ذلك . إن هذا الذي أذكره شيء إسلامي خالص،لم ترد تفاصيله عند اليهود ولا النصارى ، ولا عند الأحناف. فوروده في شعر أمية وبالكلمات والتعابير الاسلامية ، هو عمل جماعة فعلته في عهد الإسلام : وضعته على لسانه ، كما وضعوا أو وضع غيرهم على ألسنة غيره من الشعراء والخطباء ، لاعتقادها أن ذلك مما يفيد الاسلام ، ويثبت أن جماعة من الجاهليين كانوا عليه،وأنه لم يكن لذلك غريباً ، وأن هؤلاء كانوا يعلمون الغيب، يعلمون بقرب ظهور نبيّ عربي ، وأنهم لذلك بشروا به ، وأنهم كانوا يتمنون لو عادوا فولدوا في أيامه ، أو لو طال بهم العمر حتى يدركوه فيسلموا،وأمثال ذلك من قصص راج وانتشر ، كما راج أمثاله في كل دين من الأديان .

ولا بد وأن يكون هذا الوضع قد صنع في القرن الأول للإسلام ، لأن أهل الأخبار القدامى يذكرون بعض هذا الشعر[2] . وقد يكون قد وضع أكثره في عهد الحجاج تقرباً اليه ، لأنه من ثقيف ، وفي ذلك العهد وضع الوضّاع أخباراً كثيرة في الغض من شأن قوم الحجاج ، نكاية بـه فتقدم قوم آخرون اليه بالرفع من شأنها وبإضافة ذلك الشعر الى أمية وغيره ، ليكون رداً على كارهي ومبغضي الحجاج .

وتتبين آية الوضع في شعر أمية في عدم اتساقه وفي اختلاف أسلوبه وروحه .

---

١ Ency., IV, p. 998, Tar Andrae, Die Entstehung des Islams und das Christentums, upsale, 1926, S. 48.

٢ بروكلمان (١/١١٣) .

فبينما نجد شعره المنسوب اليه في المدح أو في الرثاء أو في الأغراض الأخرى مما ليس لها صلة مباشرة بالدين ، في ديباجة جاهلية على نسق الشعر المنسوب الى شعراء الجاهلية ، نجد القسم الديني منه والحكمي في أسلوب بعيد عن هذا الأسلوب ، بعيد عن الأساليب المعروفة عن الجاهليين ، أسلوب يجعله قريباً من شعر الفقهاء والصوفيين المتزمتين ، ونسّاك النصارى ، فهو بعيد جداً من أسلوب الجاهليين ، حتى أسلوب مثل (عدي بن زيد) العبادي والأعشى وبقية من نسب الى النصرانية من شعراء الجاهلية القريبين من الاسلام[1] . يضاف الى ذلك ما ذكره الرواة وأهل الأخبار من نسبة بعض ذلك الشعر إلى غيره من الشعراء .

وقد يقال إن أسلوب (أمية) في نظم الشعر الديني والحكمي ، هو أسلوب صحيح لا يمكن إلا ان يكون على هذا الحال ، هو أسلوب بعيد عن أسلوب الجاهليين في النظم ، لأن الشعر الجاهلي المعروف نظم في أغراض أخرى لا صلة لها بالحكم وبالدين ، وما جاء منه إلينا في الحكم وفي الدين هو على أسلوب آخر أيضاً ، بدليل ان بعض الشعراء منهم حين نظموا في الحكم ، رق شعرهم وبان عن نظمهم المألوف . وبدليل ان نظم (حسان بن ثابت) في الاسلام ، هو دون نظمه في الجاهلية من حيث الجزالة والفخامة في النظم ، وان شعر (لبيد) في الاسلام ، هو دون ما نظمه في الجاهلية ، بسبب تغير الظروف واختلاف الموضوع . وهو اعتذار صحيح ، ولكن أسلوب أمية في تعبيره عن الجنة والنار والبعث والحساب ، أسلوب آخر ، لا يفصح عن عقلية دينية جاهلية ، وانما عن عقلية إسلامية . ومن هنا جاء شكنا في صحة هذا الشعر وفي أصالته ، وليس من أسلوب النظم .

ولكن من الذي وضع هذا الشعر ، ثم أنكره على نفسه وأسنده إلى أمية ؟ ومن الذي رصع شعر أمية بأبيات من وزنه وقافيته ، ولكنها أبيات إسلامية ؟ ومن كان أول من جمع شعر ذلك الشاعر في ديوان نسبه اليه ؟ هذه أسئلة يجب أن توجد لها أجوبة ، ولكن أجوبتها كتاب يؤلف في حياة هذا الشاعر وفي شعره وديوانه ، عندئذ يكون هناك مجال للتنقيب عن هذه الأمور ، رُوي ان الحجّاج قال ، وهو على المنبر : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية »[2] . فهل ذهب العالمون

---

١ Ency., IV, p. 998.

٢ الاغاني (١٢٣/٤) .

به حقاً قبل ايام الحجاج ؟ وهل كان شعره ضخماً واسعـاً ؟ أو هو قول من أقوال الحجاج ، وهو ثقفي من قوم أمية ، أو هو قول وزعم من زعم الرواة . وما أكثر مزاعم الرواة وحملة الأخبار .

وأثر الوضع على بعض شعر أمية واضح ظاهر لا يحتاج الى دليل ، وهو وضع يثبت أن صاحبه لم يكن يتقن صنعة الوضع جيداً . فالقصيدة التي مطلعها :

لك الحمد والمن ربّ العبا د أنت المليك وأنت الحكمْ

هي قصيدة إسلامية ، لا يمكن أبداً أن تكون من نظم شاعرٍ لم يؤمن بالإسلام إيماناً عميقاً من كل قلبه ولسانه . خذ هذا البيت منها مثلاً :

محمـداً أرسله بالهـدى فعـاش غنيـاً ولم يُهتضم

ثم خذ الأبيات التالية له وفيها :

عطـاء من الله أعطيتـه وخصّ به الله أهلَ الحرم
وقد علموا انـه خيرهم وفي بيتهم ذي الندى والكرم
يَعيبون ما قال لما دعـا وقد فرج الله احدى البُهَمْ
به وهو يدعو بصدق الحديـ ـث الى الله من قبل زيغ القدم
أطيعوا الرسول عبـادَ الإلـ ـه تنجون من شرّ يومٍ ألم
تنجون من ظلـمات العذاب ومن حر نارٍ على من ظلم
دعانـا النبيّ به خـاتم فمن لم يُجِبْهُ أسر النـدم
نبي هدىً صـادق طيب رحيم رؤوف بوصل الرحم
بـه ختم الله من قبلـه ومن بعـده من نبي ختم
يموت كما مات من قد مضى يردّ الى الله بـاري النسم
مع الأنبياء في جنان الخلود هُمُ أهلها غير حلّ القسم
وقدس فينـا بحب الصلاة جميعاً وعلّم خط القـلم
كتابـاً من اللهِ نقرأ بـه فمن يعتريه فقدمـاً أثم

اقرأ هذه المنظومة ، ثم احكم على صاحبها ، هل تستطيع ان تقول انه كان

شاعراً مغاضباً للرسول ، وإنه مات كافراً ، وان صاحبها رثى كفار قريش في معركة بدر وأنه قال ما قال في الإسلام وفي الرسول ؟ اللهم ، لا يمكن أن يقال ذلك أبداً فصاحب هذا النظم رجل مؤمن عميق الايمان ، هو واعظ مبشر ، يخاطب قومه فيدعوهم الى الاسلام والى طاعة الله والرسول . إنه مؤمن قلباً ولساناً ، مع أنهم يذكرون أن الرسول قال فيه : آمن شعره وكفر قلبه ، أو آمن لسانه وكفر قلبه ، وإنه مات وهو على كفره وعناده وحسده للرسول ، ثم إن صاحب المنظومة رجل يتحدث عن وفاة الرسول ، مع أن أمية ، كان قد توفي في السنة التاسعة من الهجرة ، فهل يعقل أن يكون إذن هو صاحبها وناظمها ؟

أليست هذه المنظومة وأمثالها إذن دليلاً على وجود أيد لصناع الشعر ومنتجيه في شعر أمية . نحمد الله على أن صنّاعها لم يتقنوا صنعتها ، ففضحوا أنفسهم بها ، ودلّوا على مقاتل النظم .

ثم خذ قصيدة أخرى من القصائد المنسوبة لأمية ، وهي في وصف الجنة والنار استهلت بهذا البيت :

جهنم تلك لا تبقي بغيّاً وعدنٌ لا يطالعها رجيمُ

ثم استمر في قراءتها ، وفي ما جاء فيها من وصف للجنة والنار ، ثم انعم النظر في هذه الأبيات :

فذا عسل وذا لبن وخمرٌ وقمح في منابته صريمُ
ونخل ساقط الأكتاف عد خلالَ أصوله رطب قميمُ
وتفاح ورمان وموز وماء بارد عذب سليم
وفيها لحم ساهرة وبحر وما فاهوا به لهُمُ مقيم
وحورٌ لا يرين الشمس فيها على صور الدمى فيها سهوم
نواعم في الأرائك قاصرات فهنّ عقائل وهُمُ قروم
على سررٍ ترى متقابلات ألا ، ثَمَّ النضارةُ والنعيمُ
عليهم سندس وجياد رَيطٍ وديباج يُرى فيها قتوم
وحُلّوا من أساور من لُجينٍ ومن ذهب . وعسجده كريم
ولا لَغْوٌ ولا تأثيم فيها ولا غولٌ ولا فيها مُليمُ

وكأس لا تصدع شاربيها يلذّ بحسن رؤيتها النديم
تصفّق في صحافٍ من لجينٍ ومن ذهب مباركة رذوم[1]

ثم احكم بعد ذلك على صاحب هذه الأبيات. لقد حاول ناظمها ادخال بعض الكلمات الجاهلية فيها ، لإلباسها ثوباً جاهلياً ، ولاظهارها بمظهر الشعر الجاهلي الأصيل ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، بل صيرها في الواقع نظماً لوصف الجنة والنار في الاسلام. وما بي حاجة الى ان أحيلك على الآيات التي أخذ منها صاحب هذا الشعر وصفه من القرآن الكريم .

ومن الغريب ان بعض الأخباريين اتخذ هذا النظم وأمثاله حجة لتبيان عقائد الجاهليين ، فذكر مثلاً ان العرب في جاهليتها كانت تؤمن بالجزاء ، وان منهم من نظر في الكتب وكان مقرّاً بالجنة والنار. وحجته في ذلك هذه المنظومة المنسوبة الى أمية[2] . وقد نسي ان ما قاله على سبيل التعميم او التغليب ، يناقض ما جاء في القرآن الكريم وما أورده الأخباريون عن الجاهليين .

ثم خذ قصيدته في عيسى بن مريم وحمل أمه به[3] ، وسائر قصائده الأخرى ، تجد عليها هذه المسحة الاسلامية بارزة ظاهرة ، ولكن هذا لا يمنع مع ذلك من القول بوجود أبيات قد تكون من نظم أمية حقاً ، في هذا المنظوم الديني ، غير ان هذا الموجود ، هو على كل حال مما لا يتعارض مع عقائد الاسلام . ومن الممكن ادراكه بدراسة ألفاظه وأسلوبه وأفكاره، وبهذه الطريقة نتمكن من استخلاص الأصيل من شعره من الهجين .

ولأمية بن أبي الصلت أخت ، اسمها (فارعة)[4] . قدمت على النبي بعد فتح الطائف . وكانت ذات لبّ وعفاف وجمال، وكان يعجب بها . وقال لها يوماً: هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً ؟ فأخبرته خبره وقصت قصته في شق جوفه

---

١ تجد اختلافا في كلمات هذه القصيدة وأبياتها ، وكذلك في قصائد هذا الشاعر الاخرى ، فارجع في ذلك الى طبعات ديوانه والى كتب الادب لمعرفة مواضع الاختلاف: كتاب البدء والتاريخ (٢٠٢/١ وما بعدها) ، ديوان أمية « طبعة بشير يموت » ، (ص ٥٣) ، **ديوان أمية (ص ٥١ وما بعدها) ، « طبعة فريدرش شولثيس »** .

٢ كتاب البدء والتأريخ (٢٠٢/١) ، (طبعة كليمان هوار) ، « النص العربي » .

٣ ديوان أمية (ص ٥٨) ، « طبعة بشير يموت » .

٤ اللسان (٧٩٢/١) ، (وثب) .

واخراج قلبه وردّه مكانه وهو نائم وأنشدته شعره[1] ، على ما يزعمه أهل الأخبار.

وذكر أهل الأخبار أسماء أربعة بنين لأمية ، هم : القاسم ، ووهب ، وعمرو (عمر) ، وربيعة . فأما (القاسم) ، فكان شاعراً ، وله مرثية في عثمان بن عفّان[2] . وأسلم (وهب بن أمية) كذلك . وذكر أن رجلاً من ثقيف مات في عهد النبي عن غير ولد ، فاختصموا في ميراثه ، فأعطى النبي ميراثه لوهب[3]. وأما (ربيعة) ، فأسلم كذلك ، وله شعر[4] . وقد ذكر أهل الأخبار أن (حقة) بنت (وهب بن أمية بن أبي الصلت) ، تزوجت (عبدالله بن صفوان الأكبر)، فولدت له صفوان بن عبدالله بن صفوان[5] . وذكر أن (ربيعة) ، قد ولي بعض الوظائف في الإسلام . وأنه صاحب (ربيعتان) ، نهر بقرب الابلة . وأن من ولده (كلدة بن ربيعة) ، وكان شريفاً شاعراً . وقد ذكر أن بغلاً قتل (ربيعة) على باب دار (عبدالله بن عباس)[6] .

وكل ما يعرف عن سويد بن عامر المصطلقي أنه كان على دين الحنيفية وملة ابراهيم ، وأنه قال شعراً ، وصلت منه بضعة أبيات في (المنايا) وفي المقدر على الإنسان ، وان المنايا محتومة لا مفرّ منها ، وأن الخير والشر مكتوبان على النواصي ،وليس لامرىء يدٌ فيما يصيبه من مقدور . فهي في هذه المشكلة المعضلة التي شغلت بال الإنسان ولا تزال تشغله مشكلة : (الجبر والاختيار) ، أو (القدر) ، المشكلة التي احتلت منزلة الصدارة في (علم الكلام) . والتي صارت من أهم موضوعات الجدل في الاسلام . ويقال انها أنشدت للرسول ، فلما سمعها ، قال : « لو أدركته لأسلم »[7] .

وأما ورقة بن نوفل ، فهو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، يلتحم نسبه بنسب الرسول في جد جده . ذكروا انه ساح على شاكلة من شك في

---

١ الاصابة (٣٦٣/٤) ، (رقم ٨٢٤) .
٢ الاصابة (٢١٣/٣) ، (رقم ٧٠٥٢) .
٣ الاصابة (٦٠٤/٣) ، (رقم ٩١٥٧) .
٤ الاصابة (٤٩٣/١) ، (رقم ٢٥٩٠) .
٥ الاصابة (٦٠٤/٣) ، (رقم ٩١٥٧) .
٦ كتاب البغال، للجاحظ (٢٥٨/٢) ، (من رسائل الجاحظ) ، الاغاني (١٧٩/٣)، الاشتقاق (٣٠٤ وما بعدها) ، (١٢٠/٤) ، الشعر والشعراء (٣٦٩/١) ، الاصابة (١٩٧/٢) أنساب العرب (٢٦٩) .
٧ بلوغ الارب (٢٥٩/٢) .

دين قومه ، وتتبع اليهود والنصارى ، وقرأ الكتب ، وعدّ في جملة المتنصرين في أغلب الروايات ، فقد ذكر انه « تنصر واستحكم في النصرانية ، وقرأ الكتب ومات عليها »[1] . وهذا هو رأي اكثر اهل الأخبار .

ونسب اليه شعر ذكر انه قاله في رثاء زيد بن عمرو بن نفيل ، وفيه إشارة الى النار والى الثواب والعقاب بعد الموت والى فكرة التوحيد والايمان برب ليس رب كمثله والى التنديد بالأوثان[2] .

وله أبيات من الشعر يحث فيها على مساعدة الضعيف ونصر المظلوم ، وعلى فعل الخير للناس[3] .

ولا نعلم عن حياة ورقة في ايام شبابه شيئاً ، ولعله كان يعين اهله او اقربائه في اتجارهم مع بلاد الشأم او اليمن شأن اكثر شبان أسر مكة المعروفة في ذلك الوقت . فتعلم بذلك سلوك الطرق الموصلة الى العراق او بلاد الشأم ، ومن هنا اندفع نحو خارج الجزيرة يلتمس الحكمة والوصول الى رأي يقنعه في الحياة . ويظهر انه لم يكن في شبابه من اولئك الشباب الخاملين الذين كانوا يصرفون وقتهم في فراغ دائم ، دون عمل ولا تفكير ، متوسدين الأرض يقتلون فراغهم في ترهات الكلام ، كما انه لم يكن من اولئك الطائشين النزقين الذين يقضون وقتهم في النزاع والخصومة وشرب الخمر والاعتداء على الناس ، والحصول على المال للانفاق على اللهو بأية طريقة كانت ، بل كان شاباً متأملاً مفكراً منكمشاً على نفسه ، مكنه علمه بالكتابة والقراءة من قراءة الكتب والاطلاع على آراء الماضين والحاضرين ، حتى جاء يوم ، دفعه اجتهاده الذي وصل اليه على الخروج على تقاليد قومه وانتقاد الأوضاع التي كانوا عليها ، مما حمله على ترك مكة طوعاً او قهراً ، والتجول للبحث او فراراً من غضب قومه عليه .

وهو ابن عم خديجة الكبرى زوج الرسول . وقد أشير اليه في خبر « مجيء جبريل الى النبي في حراء » ،وله كلام مع الرسول على ما ورد في بعض الروايات.

---

١ اليعقوبي (٢٩٨/١) « ٢٢/٢ » « ليدن » ، البداية ، لابن كثير (٢٣٨/٢) .
٢ المحبر (١٧١) ، ابن هشام (٢٤٣/١ ، ٢٥٦) ، الاغاني (١١٣/٣ وما بعدها) ، شيخو ، النصرانية (١١٨/١) ، خزانة الادب (٣٩/٢ وما بعدها) ، مروج (٧٣/١) ، الذهبي ، تاريخ الاسلام (٦٨/١) .
٣ خزانة الادب (٣٩/٢ وما بعدها) .

يقال إنه قال للرسول وكان قد ذهب اليه مع زوجته خديجة ليسأله رأيه فيما رآه من الرؤيا : « ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك ! » وان الرسول قال له : أمخرجي هم ؟ قال : نعم ، إنه لم يجيء رجل قط بما جئت بـه إلا عودي ، ولئن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً »[1] . وأشير اليه في خبر آخر ، حيث ورد أن (خديجة) ذهبت وحدها الى ابن عمها لتسأله عن الرؤيا التي رآها الرسول وعن هذا (الناموس الأكبر) الذي تجلى له . فلما قصت عليه القصة قال : «لئن كنت صادقـة ، إنّ زوجك لنبي ، وليلقين من أمته شدة ، ولئن أدركتـه لأومنَنّ به »[2] .

وذكر في خـبر آخر أن الرسول قد رأى (ورقة) في منامه ، وكان لابساً ثياباً بيضاً . وان الرسول ذكـر ذلك لمن سأله عنه ، وبين لهم أنـه لو كان من أهل النار لما ظهر له في منامه وهو بهذه الملابس . لأن أهل النار لا يلبسون ثياباً بيضاً[3] . ويروى أن الرسول قال : « لا تسبّوا ورقة بن نوفل ، فإني رأيتـه في ثياب بيض »[4] . قيل إن شخصاً تساب مع أخ لورقة بن نوفل ، فسب ورقة ليحرق قلب أخيه ، فبلغ ذلك الرسول ، فنهى عن سبّه[5] .

وجاء في خبر ان (ورقة) كان يمر بمكـة فيرى بلالاً وهو يعذّب ، يعذبه المشركون برمضاء مكة ، يلصقون ظهره بالرمضاء ، ويضربونه يريدون منـه ان يشرك بالله ، فلا يشرك به . ويأبى إلا ان يقول : أحد أحد، فيرثي ورقة لحاله ويقول : أحد أحد والله يا بلال . والله لئن قتلتموه فأنتم من الخاسرين[6] . او « والله لئن قتلتموه ، لاتخذن قبره حناناً »[7] .

---

١ الطبري (٢/٢٩٩) « دار المعارف » ، ابن هشام (١/٢٥٤ وما بعدها) ، المسعودي مروج (٢/٥٩) ، (١/٧٣) « محمد محيي الدين عبد الحميد » « ١٩٥٨ م » ، الكامل ، لابن الاثير (٢/٣١) ، الذهبي ، تاريخ الاسلام (١/٧٥) ، القسطلاني ، شرح صحيح (١/٦٦) ، الاصابة (٣/٦٣٣) .

٢ الطبري (٢/٣٠٠) « دار المعارف » ، ابن سعد ، الطبقات (١/١٩٤) « بيروت ١٩٥٧ م » ، شرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني (١/٦٦ وما بعدها) .

٣ الاغاني (٣/١١٣ وما بعدها) « بيروت ١٩٥٥ م » .

٤ كتاب نسب قريش (ص ٢٠٧) ، الترمذي (٣/٢٥١) ، الاصابة (٦/٣١٨ وما بعدها) ، مجمع الزوائد (٩/٤١٦) .

٥ الاصابة (٣/٦٣٣) .

٦ الاغاني (٣/١١٣ وما بعدها) .

٧ النهاية ، لابن الاثير (١/٢٢٦) ، الاصابة (٦/٣١٨) ، كتاب نسب قريش (٢٠٨) .

ويظهر من الأخبار المتقدمة ان (ورقة بن نوفل) ، كان قد أدرك ايام الرسول وعاش الى يوم نزول الوحي عليه . بل يظهر من خبر رؤيته لبلال وهو في حالة تعذيبه ، انه عاش مدة بعد نزول الوحي . غير ان الأخبار المذكورة لا تنص على اسلامه ، ولم نجد أحداً قد نص على ذلك . أما خبر رؤيا الرسول له في منامه ، فانه يدل على عدم إسلامه ، وعلى انه كان قد توفي قبل نزول الوحي على الرسول . وهو الرأي الراجح. وهذا ما حمل أحد المؤرخين على القول: وقد اختلف فيه ، فمنهم من زعم انه مات نصرانياً ولم يدرك ظهور النبي. ومنهم من رأى انه مات مسلماً وانه مدح النبي[1] . وقد ورد في بعض الأخبار ان الرسول قال لما توفي ورقة : « لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير ، لأنه آمن بي وصدقني »[2] . وورد مثل ذلك من أحاديث زعم ان الرسول قالها في حق ورقة ، وهي كلها تشير الى وفاة ورقة قبل المبعث ، وعلى دينه ، إذ لم يدرك الاسلام .

وورد في بعض الروايات أنه « كان يكتب الكتاب العربي ، فكتب بالعربية من الانجيل ما شاء أن يكتب »[3] . وورد في رواية أخرى أنه « كان يكتب الكتاب العبراني ، فكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب »[4] . والخبران هما خبر واحد ، كما يظهر من وحدة النص ، غير إن اسم اللغة التي زعم أنه كان يكتب بها قد حرّف ، فقرأه بعضهم العربي ، وقرأه بعض آخر العبراني . ولما كان الانجيل باليونانية وبلغة بني إرم ، فقد أخطأ الرواة بجعل لغة الانجيل هي العبرانية ، وهم يتوهمون كثيراً فيخلطون بين العبرانية والسريانية . والغالب أنهم كانوا يريدون بالعبرانية لغة بني إرم التي كانت لغة العلم والأدب والدين في العراق وفي بلاد الشأم ، بل وبين مثقفي اليهود ورجال دينهم في ذلك الوقت .

وذكر أهل الأخبار أنه لم يعقب[5] . ولم يذكروا سبب ذلك ، هل كان قد

---

١ المسعودي ، مروج (٢/٥٩) .
٢ القسطلاني ، شرح صحيح (١/٦٥) ، الذهبي ، تأريخ الاسلام (١/٦٨) ، الذهبي ، سير النبلاء (٨٠) ، خزانة الادب (٢/٤١) .
٣ النصرانية (١/١١٩) .
٤ الاغاني (٣/١١٣) ، الاشتقاق (١٦٤) .
٥ كتاب نسب قريش (ص ٢٠٧) .

تزوج ، ولكنه كان عقيماً ، فلم يعقب ؟ أو أنه عاش أعزب ولم يتزوّج طول حياته ؟

وكان (أبو قيس صرمة بن أبي أنس) (صرمة بن أنس) وهو من بني النجار ، قد ترهب ولبس المسوح ، وهجر الأوثان ، ودخل بيتاً واتخذه مسجداً لا تدخله طامث ولا جنب ، وقال : أعبد رب ابراهيم ، فلما قدم النبي المدينة أسلم وهو شيخ كبير ، وحسن إسلامه . وفيه نزلت الآية : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر »[1].ورووا له شعراً[2]. وزعم أنه اغتسل من الجنابة ، وهمّ بالنصرانية ، ثم أمسك عنها . وذكر أن (ابن عباس) كان يختلف اليه يأخذ عنه الشعر[3] .

وأما (وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي)،فهو من إياد ، زعم(ابن الكلبي) انه ولي البيت بعد جرهم ، فبنى صرحاً بأسفل مكة ، وجعل فيه أمة يقال لها (حزورة) ، وبها سميت (حزورة مكة) ، وجعل في الصرح سلّماً ، فكان يرقاه ويزعم انه يناجي الله . وكان ينطق بكثير من الخبر ، ويزعم الناس انه صدّيق من الصدّيقين ، وقالوا كان كاهناً[4] . وذكروا له كلمات مسجعة ، ليس فيها ما يشرح لنا معتقده الديني ويوضحه وضوحاً تاماً[5] .

والصرح كما يقول علماء اللغة ، بيت يبنى منفرداً ضخماً طويلاً في السماء

---

١ البقرة ، الآية ١٨٧ ، مروج ، (١/٥٢ وما بعدها) ، تفسير الطبري (٢/٩٧) « بولاق » .

٢ بلوغ الارب (٢/٢٦٦) .

٣ بلوغ الارب (٢/٢٦٦) ، أسد الغابة (٣/١٨) ، الاصابة (٢/١٧٦) ، (رقم ٤٠٦١) ، الاستيعاب (٢/١٩٤) ، (حاشية على الاصابة) .

٤ المحبر (١٣٦) ، بلوغ الارب (٢/٢٦٠) .

٥ (وقال الايادي صاحب الصرح ، الذي اتخذ سلما لمناجاة الرب ، وهو القائل : مرصعة وفاطمة ، القطيعة والفجيعة ، وصلة الرحم وحسن-الكلم ، زعم ربكم ليجزين بالخير ثوابا ، وبالشر عقابا. وان من في الارض عبيد لمن في السماء. هلكت جرهم وربلت اياد ، وكذلك الصلاح والفساد . من رشد فاتبعوه ، ومن غوى فارفضوه . كل شاة معلقة برجلها .

واياه عنى الشاعر بقوله :

ونحن اياد عبيد الاله ورهط مناجيه في السلم
ونحن ولاة حجاب العتيق زمان الرعاف على جرهم

البيان والتبيين (٢/١٠٩) ، الامثال ، للميداني (٢/٨١) .

وكل بناء عالٍ مرتفع[1] . والحزورة الرابية الصغيرة والتل الصغير[2] . ويظهر انه كان بنى صرحه فوق تل في محل منفرد ، ليختلي هناك على طريقة الرهبان والنساك .

وكل ما عرفه أهل الأخبار عن (عمير بن جندب) الجُهني ، انه كان من جهينة ، وانه كان موحداً لم يشرك بربه أحداً ، وانه مات قبيل الاسلام[3] .

وكان عامر بن الظرب العَدواني من الحكماء ، نسبت اليه أقوال في الحكم والدين . منها : « إني ما رأيت شيئاً خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً ، ولا جائياً إلا ذاهباً ، ولو كان يميت الناس الداء ، لأحياهم الدواء » . ثم قال : « إني أرى أموراً شتى وحتى . قيل له : وما حتى ؟ قال : حتى يرجع الميت حياً ، ويعود اللاشيء شيئاً ، ولذلك خلقت السماوات والأرض ، فتولوا عنه ذاهبين »[4] .

وقد نسبوا اليه جملة أحكام ، منها حكمه في (الخنثى) ، وقد ذكروا أن حكمه هذا قد أقرّه الاسلام . وقالوا إن العرب كانت إذا أشكل عليها أمر في قضاء ، أو حارت في أمر معضل ترى وجوب الحكم فيه برأي صائب وعقل وتدبير ، ذهبت اليه ، فإذا حكم كان حكمه الحكم الفصل ، فلا رادّ له[5] .

ونسبت الى كل من عبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة وعلاف بن شهاب التميمي أبيات ، فيها اقرار بوجود إلٰه واحد خالق لهذا الكون ، وبوجود الحساب والثواب والعقاب[6] .

وأما (المتلمس بن أمية) الكناني ، فذكروا انه كان قد اتخذ من فناء الكعبة موضعاً يخطب فيه ، ويعظ قومه عظات دينية ، فكان في جملة ما قاله لهم :

---

١ تاج العروس (٢/١٧٨ وما بعدها) ، (صرح) .
٢ تاج العروس (٣/١٣٨) ، (حزر) .
٣ بلوغ الارب (٢/٢٦١ وما بعدها) .
٤ المحبر (١٣٥ ، ١٨١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩) ، بلوغ الارب (٢/٢٧٥ وما بعدها) .
٥ الروض الانف (١/٨٦) ، ابن هشام (١/١٣٤) ، (محمد محيي الدين عبد الحميد) ، المعمرون (٤٤ وما بعدها) ، عيون الاخبار (١/٢٦٦) ، البيان والتبيين (١/٢٦٤ ، ٣٦٥ ، ٤٠١) ، (٢/٧٢ ، ١٩٩) ، (٣/٣٨ ، ٣٩ ، ٢٩٩ ، ٣٦٩) .
٦ الاغاني (٣/١١٣) ، (طبعة بيروت) ، مروج (٢/٦٠) .

« انكم قد تفردتم بآلهة شتى ، واني لأعلم ما الله راض به . وإن الله تعالى رب هذه الآلهة ، وانه ليحب ان يعبد وحده » . فنفرت كلماته هذه وأمثالها القوم منه وتجنبته ، وقالوا عنه انه على دين بني تميم[1] .

وفي أبيات منسوبة الى زهير بن أبي سُلمى الشاعر المعروف إقرار بوجود إلـه عالم بكل ما في النفوس ، هو (الله) ، لا تخفى عليه خافيـة ، فلا يجوز كتمان شيء عنه ، وبوجود يوم حساب يحاسب فيه الناس على ما قاموا به من أعمال ، وقد ينتقم الله من الظالم في الدنيا قبل الآخرة ، فلا مخلص له[2] .

ونسب الايمان بالله واليوم الآخر الى أشخاص آخرين ، منهم : عبدالله القضاعي والشاعر عَبيد بن الأبرص الأسدي ، وكعب بن لؤي بن غالب ، والأول منهم هو ابن تغلب بن وبرة بن قضاعة ، كان من الحكماء الخطباء ، يتبع الحنيفية ، وينهج على نهجها مثل الحنفاء[3] .

وأما الثاني ، وهو عَبيد بن الأبرص ، فشاعر جاهلي شهير ،له في قتله قصة ، هي من ذيول قصة (الغريّين) للمنذر بن ماء السماء . نجد في الشعر المنسوب اليه اسم (الله) يتردد في كثير من المواضع ، ونراه من المتشائمين المؤمنـين بالمنايا وبالمحتم المكتوب ، ونراه في القصيدة البائية يتوكـل على الله ، ويدعو الناس الى الاعتماد عليه فيقول :

من يسأل الناس يحرموه وسائـل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خير والقول في بعضه تلغيب
والله ليس لـه شريك علاّمُ ما أخفت القلوب[4]

---

١ بلوغ الارب (٢/٢٧٧) .

٢ فلا تكتمن الله ما في صدوركـم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيودع في كتـاب فيدخـر ليوم الحساب أو يعجل فينقم
شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، للامام ثعلب (ص ١٢) ، (طبعة دار الكتـب المصرية) ، شعراء النصرانية ، (القسم الرابع ص ٥١٨) ، بلوغ الارب (٢/٢٧٧ وما بعدها) .

٣ بلوغ الارب (٢/٢٨٠) .

٤ البيان والتبيين (١/٢٢٦) ، شعراء النصرانية (القسم الرابع ص ٦٠٧ ومـا بعدها) ، أسماء المغتالين (٢١١) ، (نوادر المخطوطات) .

ونراه يقول في المنايا :

فأبلـــغ بنيّ وأعمامهم بأن المنايا هـــي الوارده
لها مدة فنفوس العبـــاد اليها وإن كرهت قاصده
فلا تجزعوا الحمام دنا فللموت ما تلد الوالده[1]

وفي كثير من مواضع شعره يذكر المنايا ويتذكر الموت ، ثم هو يتجلد ويتصبر في ملاقاة الشدائد والأهوال ، وينصح النـــاس بالسير على هذا المنوال . والذي يقرأ شعره ، يشعر أنه أمام رجل حضري رقيق عاطفي المزاج ، ذي نفس ميالة الى التقشف والتصوّف ، مؤمن بالعدل ، كاره للظلم ، فهل كان عبيد على هذه الشاكلة ؟ وهل هذا الشعر وخاصة ما جاء منه في البائية هو نظم من منظومه ؟ أو هو من نظم من عاش بعده في الاسلام ؟

وأما (كعب بن لؤي بن غالب) . فهو من أجداد النبي . وقد كان على الحنيفية ،واليه كانت تجتمع قريش في كل جمعة،فكان يعظهم ويوجههم ويرشدهم يأمرهم بالطاعة والتفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وتقلب الأحوال والاعتبار بما جرى على الأولين والآخرين ، ويحثهم عـلى صلة الأرحام وإفشاء السلام وحفظ العهد ومراعاة حق القربة والتصدق على الفقراء والأيتام[2] .

هذه خلاصة موجزة لسير من حشرهم أهل الأخبار في زمرة الحنفاء ، تريك آراء الجماعة تكاد تكون واحدة : كفر بالأصنام وبالشرك كله ، وإعراض عـن عادات قومهم ، وثورة على عقائدهم ، وترقب لحدوث تطور واصـلاح يقضي على الجهالة ، وقد مهدوا له بدعوتهم تلك التي أشاعوها بين بني قومهم فجلبت عليهم السخط والغضب الشديد ، مما حمل أكثرهم ، وهم في الغالب من مكـــة وأطرافها ، على الفرار من بلدتهم الى أطرافها المنعزلة الآمنة وغيرها من الأماكن الخالية ، ليكونوا في أمان من ايذاء قومهم لهم ، وفي وسط يفكرون فيـــه في خلق السماوات والأرض تفكيراً هادئاً ، فلا يزعجهم مزعج ، ولا ينغص حياتهم هناك منغص .

---

١ شعراء النصرانية (القسم الرابع ص ٦٠٤ وما بعدها) .

٢ ابن سعد ، الطبقات (الجزء الاول ، القسم الاول ص ٣٩) ، بلـــوغ الارب (٢/ ٢٨٢) .

لقد جعل أهل الأخبار معظم من تحدثنا عنهم إن لم نقـل كلهم من القارئين الكاتبين ، ونسبوا الى بعضهم قراءة الكتب والصحف والزبور ومجلة لقمان . يريدون بذلك الكتب المقدسة . ويفهم من كلامهم في بعض الأحيـان ان منهم من كان يحسن فهم العبرانية أو لغة بني إرم . ولكن الأخباريين عفا الله عنهم لم يتبسطوا لنا في الحديث عن ماهيـة تلك الصحف وعن محتويات مجلـة لقمان وعن الكتب المُنزلة ، ولم يأتوا بنماذج مفصلة طويلة أو قطع ترشد إلى المظانّ التي نقلت منها. فأضاعوا علينا ، باهمالهم الاشارة الى هذه الأمور ، أشياء كثيرة مهمة ، بنا حاجة ماسة إلى معرفتها ، للوقوف على الحالة الدينية في جزيرة العرب قبيل الاسلام وابان ظهوره .

ويؤكد أهل الأخبار ان بعض أولئك الحنفـاء كانوا يسيرون على سنّة ابراهيم وشريعته ، وان بعضاً آخر منهم كان يلتمس كلماته ويسأل عنها ، وانهم في سبيل ذلك تحملوا المشاق والأسفار والصعاب . وقد جعلوا وجهة أكثرهم أعالي الحجاز وبلاد الشأم وأعالي العراق . أي المواضع التي كانت غالبية أهلهـا على النصرانية يومئذ ، وجعلوا أكثر كلامهم وسؤالهم مع الرهبان . وقد أضافوا اليهم الأحبار أحياناً ، وذكروا ان الرهبان والأحبار أشاروا عليهم بوجوب البحث والتأمـل ، فليس عندهم ما يأملونه ويرجونه من دين ابراهيم واسماعيل ، ولذلك لم يدخلوا في يهودية ولا نصرانية ، بل ظلوا ينتظرون الوعد الحـق ، ومنهم من مات وهو على هذه العقيدة . مات معتقداً بدين ابراهيم حنيفاً ، غير مشركٍ بربه أحداً .

أما كيف كانت شريعة ابراهيم ، وعلى أي نهج سار الحنفاء ، وهل كان لهم كتـاب أو كتب أو نحو ذلك ؟ فأسئلة لم يجب عنها أهل الأخبار إجابة صريحة واضحة . لذلك صرنا في جهـل بأمر تلك الشريعة : شريعة ابراهيم ، شريعة التوحيد الحق .

ويذكر أهل الأخبار أنه كان لأتباع ابراهيم من العرب علامات وعادات ميزوا أنفسهم بها عن غيرهم ، منها : الختان ، وحلق العانة ، وقص الشارب . وهي علامـات جعلها بعض المفسرين مـن (كلمات ابراهيم) التي ذكرت في القرآن الكريم ، في الآية : « وإذ ابتلى ابراهيم ربّه بكلمات فأتمهن »[1] . ذهب القائلون

---

١ البقرة ، الآية ١٢٤ .

بهذا الرأي الى أن تلك الكلمات هي عشر : « خمس في الرأس ، وخمس في الجسد. فأما التي في الرأس ، فالمضمضة والاستنشاق وقصّ الشارب وفرق الرأس والسواك. وأما التي في الجسد ، فالاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان»[1].

ومن سنن شريعة ابراهيم الاختتان. وهو من العادات القديمة الشائعة بين العرب الجاهليين الوثنيين . أما العرب النصارى ، فلم يكونوا يختتنون . فالحنفاء في هذه العادة والوثنيون سواء . وفي أخبار معركة (حنين) أن الأنصار حينما أجهزوا على قتلى ثقيف ممن سقط في هذه المعركة مع هوازن وجدوا عبداً ، عندما كشف ليستلب ما عليه وجد أغرل . فلما تبين ذلك للأنصار ، نادى أحدهم بأعلى صوته: يعلم الله أن ثقيفاً غُرْل ما تختتن . فقام اليه المغيرة بن شعبة ، وهو من ثقيف ، فأخذ بيده ، وخشي أن يذهب ذلك عن قومه في العرب ، فقال له : لا تقل ذلك فداك أبي وأمي ، إنما هو غلام لنا نصراني ، ثم جعل يكشف له قتلى قومه ويقول له : ألا تراهم مختتنين[2] ؟

ويتبين من هذا الخبر أن العرب كانوا يعدون الغرل شيئاً معيباً ، ومنقصة تكون حديث الناس . وهناك خبر آخر يفيد أن العرب جميعاً كانوا يختتنون ، وأن الاختتان كان من السمات التي تميزهم عن غيرهم ، وأنهم في ذلك كاليهود[3] . وقد ورد في الموارد اليهودية ما يفيد اختتان العرب . ولعل التوراة التي ذكرت قصة اختتان اسماعيل ، أخذت خبرها هذا من تقاليد العرب الشماليين التي كانت شائعة بينهم في ذلك العهد[4] .

الاعتكاف :

وقد نسب الاعتكاف في الكهوف وفي البراري وفي الجبال الى عدد من هؤلاء الحنفاء . فقد ذكر أهل الأخبار أنهم كانوا قد اعتكفوا في المواضع الخالية البعيدة

---

١ تفسير الطبري (١/٤١٤ وما بعدها) ، روح المعاني (١/٣٧٤) ، بلوغ الارب (٢/٢٨٧) ، المحبر (٣٢٩) .

٢ الطبري (٣/١٣٠) ، « ذكر الخبر عن غزوة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، هوازن بحنين » .

٣ الاغاني (٦/٩١) ، « ذكر أبي سفيان وأخباره ونسبه » .

٤ Reste, S. 175.

عن الناس ، وحبسوا أنفسهم فيها ، فلا يخرجون منها إلا لحاجة شديدة وضرورة ماسة[1] . يتحنثون فيها ويتأملون في الكون ، يلتمسون الصدق والحق . والتحنث التعبد . فكانوا يتعبدون في تلك المواضع الهادئة الساكنة ، مثل غار (حراء) . وقد ذكر أن الرسول كان يتحنث فيه الليالي ، يقضيها في ذلك الغار[2] .

ويعبر عن التعبد ليلاً بـ (التهجد) أيضاً . وذكر ان التهجد الصلاة ليلاً . وقد كان الرسول يتهجد[3] . والتهجد التيقظ والسهر بعد نومة من الليل . والهجود النوم عند العرب . ويظهر ان تفسير التهجد بالتعبد ليلاً ، انما ورد من تفسيرهم لما ورد في القرآن الكريم : « ومن الليل فتهجد به نافلة ، عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً »[4] . فخص العلماء التهجد بالتعبد ليلاً .

ويعبر عن التعبد بالنسك ، والنسك : العبادة والطاعة وكل ما يتقرب به الى الآلهة . والنسّاك : المتعبدون . وقد كان الحنفاء من النساك أي المتعبدين. وعدّوا الذبائح من النسك . وجعلوا النسيكة : الذبيحة[5] . والذبائح ، أي النسائك ، هي من أهم مظاهر التعبد والزهد عند الجاهليين .

وممن نسب الى النسك والرهبنة من الجاهليين (أبو عامر عبد عمرو بن صيفي ابن مالك بن النعمان) ، أحد (بني ضبيعة بن زيد) . وكان في الجاهلية يسمى (الراهب) ، لأنه كان مترهباً ، وقد كان من المقدمين بيثرب ، إذ كان رأس الأوس فيها ، فلما جاء رسول الله الى المدينة ، خاصمه ، ثم خرج الى مكة مباعداً له ، ومعه خمسون غلاماً من الأوس ، واشترك مع قريش يوم أحد[6] .

---

١ تاج العروس (٦/٢٠٣) ، (عكف) .
٢ تاج العروس (١/٦١٦) ، (حنث) .
٣ تاج العروس (٢/٥٤٣) ، (هجد) .
٤ الاسراء ، الآية ٧٩ ، تفسير الطبري (١٥/٩٥) ، روح المعاني (١٥/١٢٧) .
٥ اللسان (١٠/٤٩٨ وما بعدها) ، (نسك) .
٦ نهاية الارب (١٧/٨٩) ، (ذكر غزوة أحد) ، امتـــاع الاسماع (١/١١٥) ، « غزوة أحد » .